محمد إقبال
وحديث الروح

العلامة الشاعر والمفكر والفيلسوف

محمد إقبال
وحديث الروح

يوسف أبو الحجاج الأقصري

تقديـم

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

وبعد

وهـذا إصـدار متميز عن العلامة الفيلسوف المتصوف محمد إقبال، وهو بن الشيخ نور محمد وكان أبوه يكنى بالشيخ «تتهو» أي «ذي الحلقة بالأنف» ولد العلامة محمد إقبال في سيالكوت إحدى مـدن البنجاب الغربية في الثالث من ذي القعدة عـام 1294هـ الموافق 9 تشرين ثاني «نوفمبر» عام 1877م وهو المولود الثاني لأبيه من الذكور...

* يعود أصل الشاعر العلامة «محمد إقبال» إلى أسرة برهمية، حيث كان أسـلافه ينتمون إلى جماعة من الياندبت في كشمير، واعتنق الإسلام أحد أجداده في عهد السلطان زين العابدين بادشاه وذلك قبل حكم الملك المغولي الشهير «أكبر»...

نزح جد محمد إقبال مع والده إلى سيالكوت التي نشأ فيها محمد إقبال ودرس اللغة الفارسية والعربية إلى جانب لغته الأردية...

ثم رحل الشاعر العلامة محمد إقبال إلى أوروبا وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ في ألمانيا ولما عاد إلى وطنه لم يشعر إلا أنه خلق للأدب الرفيع، وكان الشاعر العلامة والفيلسوف محمد إقبال وثيق الصلة بأحداث المجتمع الهندي حتى أصبح رئيسا لحزب العصبة الإسلامية في الهند، ثم العضو البارز في مؤتمر (الله أباد) التاريخي حيث نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس، ورأى تأسيس دولة إسلامية اقترح لها اسم «باكستان».

* توفي محمد إقبال عام 1938م بعد أن اشتهر بشعره وفلسفته، وقد غنت له أم كلثوم قصيدة «حديث الروح»..

مع الشاعر الفيلسوف العلامة «محمد إقبال» تدور سطور هذا الإصدار الموجز المختصر عن حياته وأشعاره وتمنياتي بأن يكون إضافة جديدة للمكتبة العربية.

والله الموفق والمستعان

المؤلف

يوسُف أبو الحجَّاج الأقصري

الفصل الأول

بطاقة تعارف

بطاقة تعارف

الاسم: محمد إقبال بن الشيخ نور محمد

الميلاد: 8 نوفمبر 1877م

مكان الميلاد: سيالكوت ـ البنجاب ـ الهند البريطانية

الوفاة: 21 أبريل 1938 عن عمر يناهز 60 عاماً

مكان الوفاة: لاهور ـ البنجاب ـ الهند البريطانية

أماكن الإقامة: لاهور

سيالكوت

المواطنة: الراج البريطاني «باكستان»

الاهتمامات الرئيسية: الأدب ـ الفلسفة ـ الصوفية

الشهادات الجامعية: دكتوراه في الفلسفة

ماجستير في الأدب

المهنة: فليسوف ـ كاتب ـ شاعر

سياسي ـ محام

«موجز سيرته»

* بدأ محمد إقبال تعليمه في سن مبكرة على يد أبيه، ثم التحق بأحد مكاتب التعليم في سيالكوت، وفي السنة الرابعة من تعليمه رأى أبوه أن يتفرغ للعلم الديني، ولكن أحد أصدقاء والده وهو «مير حسن» لم يوافق وقال لوالده «هذا الصبي ليس لتعليم المساجد وسيبقى في المدرسة لإكمال تعليمه حتى الجامعي»..

* انتقل محمد إقبال إلى المدرسة الثانوية حيث كان أستاذه «مير حسن» يُدرِّس هناك الآداب العربية والفارسية وكان قد كرس حياته للدراسات الإسلامية.

* بدأ محمد إقبال في كتابة الشعر في هذه المرحلة المبكرة وشجعه على ذلك أستاذه «مير حسن» فكان ينظم الشعر في بداية حياته بالبنجابية ولكن السيد «مير حسن» وجهه إلى النظم بلغة الأردو، وكان محمد إقبال يرسل قصائده إلى ميرزا «داغ دهلوى» الشاعر البارز في الشعر الأردو ـ حتى يُبدي رأيه فيها وينصحه بشأنها وينقحها، ولم تمضي إلا فترة بسيطة حتى قرر «داغ دهلوى» أن أشعار

محمد إقبال في غنى تام عن التنقيح، وأتم محمد إقبال دراسته الأولية في سيالكوت ثم بدأ دراسته الجامعية باجتياز الامتحان العام الأول بالكلية الحكومية عام 1891م، التي تخرج فيها وحصل منها على إجازة الآداب عام 1897م ثم حصل على درجة الماجستير عام 1899م وحصل على تقديرات مرموقة في امتحان اللغة العربية في الكلية الحكومية.. وتلقى محمد إقبال دراسته الفلسفية في هذه الكلية على يد الأستاذ «توماس أرنولد» وكان أستاذا في الفلسفة الحديثة وفي الآداب العربية والعلوم الإسلامية في جامعة لندن.

* وبعد أن حصل محمد إقبال على الماجستير عُين محمد إقبال عميداً للعربية في الكلية الشرقية لجامعة البنجاب، وحاضر حوالي أربع سنوات في التاريخ والتربية الوطنية والاقتصاد والسياسة وصنف كتابا في «علم الاقتصاد»، ولم يصرف التدريس محمد إقبال عن الشعر، بل ظل يشارك في محافل الأدب وجلسات الشعر والتي يسمونها في شبه القارة الهندية «مشاعرة».

* غادر محمد إقبال إلى لندن وإلى القارة الأوروبية وزار عدداً من بلدانها، وكان في كل أسفاره يعمل على نشر الإسلام، وأثر بشعره وأسلوبه في كثير من الأوروبيين ومنهم «موسيليني» حيث وجه له دعوة عقب مشاركته في مؤتمرات المائدة المستديرة في لندن عامي

«1930 ـ 1931» وكان منظم اللقاء بين موسوليني ومحمد إقبال هو الدكتور «سكاربا» حيث كان معجبا بفكر إقبال وإيمانه بالإنسان وقدراته، وذهب محمد إقبال بالفعل إلى إيطاليا والتقى بموسوليني وألقى محاضرة في روما بيَّن فيها الفرق بين مذهب كل من الحضارة الغربية والشيوعية والحضارة الإسلامية، ووضَّح فيها رأيه في أسباب تخلف المسلمين، وإن من أهم أسباب هذا التخلف هو البُعد عن دينهم، وذكَّر محمد إقبال الناس بماضي المسلمين وحضارتهم، ثم زار أسبانيا في عام 1932م، وذلك بعد أن حضر مؤتمر الدائرة المستديرة الثالث وحرص على مشاهدة المعالم الإسلامية هناك، ووقف محمد إقبال أمام جامع قرطبة وقفة مؤمن شاعر، ومما قاله في قرطبة: ـ

لحورية الغرب وجه جميل وجناتها أذنت بالرحيل

على العين والقلب كن ذا حذر سماؤك فيها جمال القمر

ويقصد محمد إقبال بحورية الغرب هنا «قرطبة».

* كتب محمد إقبال أشعار كثيرة يحث المسلمين على الجهاد وجاء ديوانه (صلصة الجرس) صرخة صارخة لحث المسلمين على الجهاد والتمسك بدينهم وتم تصنيف قصيدتي شكوى وجواب شكوى

من روائع الأدب العالمي.

* زار محمد إقبال أفغانستان على أثر دعوة وجهها له «نادر شاه» ملك أفغانستان ومر في إحدى رحلاته على مصر، وقابل بعض شبابها وأعجب بشباب مصر.. كما زار فلسطين عام 1931م ومما قاله في افتتاح المؤتمر الإسلامي العام 1931 هو: على كل مسلم عندما يولد ويسمع كلمة لا إله إلا الله أن يقطع على نفسه العهد لإنقاذ المسجد الأقصى...

* في ألمانيا نال الدكتوراه على بحث له بعنوان «تطوير الغيبات في فارس» وعقب عودته من ألمانيا التحق بمدرسة لندن للعلوم السياسية وحصل منها على إجازة الحقوق بامتياز.

* اجتمع المرض على الشاعر الفيلسوف العلامة محمد إقبال في السنوات الأخيرة من عمره، فقد ضعف بصره وكان يعاني من آلام وأزمات شديدة في الحلق مما اضطره إلى اعتزال المحاماة.

* في 21 أبريل عام 1938م وفي تمام الساعة الخامسة صباحاً توفى محمد إقبال ونعاه قادة الهند وأدباؤها من المسلمين والهندوس على السواء بعد أن ترك ثروة ضخمة من علمه ومؤلفاته..

العلامة محمد إقبال ورحلته العلمية

كان الشاعر والفيلسوف «محمد إقبال» أمة في رجل، جمع مختلف الفلسفات والعلوم، كتب نثرا ونظم شعراً، أجاد اللغات شرقية وغربية، وحمل هم الأمة الإسلامية في قلبه وكيانه، استقرأ داءها، ووصف دواءها، وسخر قلمه لبعث نهضتها، فتغنت بأشعاره، واهتدت بأفكاره، فكان نموذج المفكر والأديب الملتزم..

* بدأ العلامة «محمد إقبال» رحلته الفكرية والأدبية في موطنه سيالكوت وفيها تتلمذ على يد «مير حسن» شمس العلماء، ثم رحل إلى لاهور، ليدرس الفلسفة والقانون في كلية الحكومة وكلية «لاهور» للقانون، وتتلمذ إلى المستشرق «توماس أرنولد»، وبعدما تحصل على شهادة الماجستير في الفلسفة الإسلامية عمل بالتدريس في الكلية الشرقية، وكلية الحكومة، وفي هذه الأثناء نظم محمد إقبال الشعر بالأردية، وأصدر كتابه الأول بالأردية «معرفة الاقتصاد» عام 1903م، ولم يتوقف نهم إقبال للمعرفة عند هذا الحد بل قرر أن ينال من علم الغرب حظا فشد الرحال إلى لندن حيث التحق بجامعة كامبريدج

وتحصل على شهادة في الفلسفة «فلسفة الأخلاق»والقانون، ودرس شيئا من السياسة والاقتصاد، ثم سافر إلى ألمانيا ليقدم بحثه لنيل درجة الدكتوراه عن رسالته «تطور ما وراء الطبيعة في إيران عام 1908م».

* ثم عاد محمد إقبال إلى الوطن ليبدأ رحلة جديدة في الحياة، رحلته العلمية رحلة العطاء والنضال، كما مارس التدريس في كلية الحكومة، والكلية الشرقية في جامعة البنجاب، ومارس المحاماة ومنها كان يتعيش، وكتب مئات الرسائل في المشكلات السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية التي عاصرها في بلده وفي الهند وأوروبا والعالم الإسلامي، وظل الشعر هو الرفيق الأعز له، والصديق الأثير في خضم مسؤولياته والتزاماته، وفيه تجلت فلسفته الإنسانية في أسمى معانيها.

* وصلت أعماله ودواوينه إلى ثمانية عشر عملاً وديوانا منها:.

- معرفة الاقتصاد بالأردية عام 1903م
- ما وراء الطبيعة في إيران بالإنجليزية عام 1908م
- ديوان أسرار الذات بالفارسية عام1015 م
- ديوان رموز نفي الذات بالفارسية عام 1918م

- ديوان رسالة المشرق بالفارسية عام 1923م
- ديوان صلصة الجرس بالأردية عام 1924م
- ديوان أناشيد فارسية بالفارسية عام 1927م
- إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام بالإنجليزية عام 1930م
- ديوان رسالة الخلود بالفارسية عام 1923م
- ديوان المسافر بالفارسية عام 1936م
- ديوان ماذا ينبغي أن نفعل يا أمم الشرق بالفارسية عام 1936م
- ديوان جناح جبريل بالأردية عام 1936م
- ديوان عصا موسى بالأردية عام 1937م

* في مجال السياسة دعا محمد إقبال إلى استقلال مسلمي الهند في أرض خاصة بهم، فهو يرى أن شعبا ما لا يستطيع أن يكون أمة إلا إذا كان ذا روح واحد، دعا إلى قيام دولة باكستان وللأسف قامت عام 1947م بعد رحيله بتسع سنوات ولم يشهد ميلادها... ومع ذلك فقد اعتبرته حكومة باكستان الأب الروحي لها ومنحته جنسيتها وأنشأت أكاديمية إقبال للعلوم والآداب عام 1951م والتي شملت قسمين هما قسم دراسة أعمال إقبال، وقسم دراسة الاتجاهات الفكرية والفلسفية والسياسية والأدبية والثقافية

التي تساعد على فهم أعمال إقبال وقد نجحت «أكاديمية إقبال» في إصدار مئات الدراسات وتشمل ترجمات لأعماله إلى ثماني عشرة لغة من لغات العالم، وتشمل دراسات فكرية ونقدية تتناول الجوانب المختلفة لفكره وشعره، كما أصدرت دورية فصلية، لمراجعة ما يكتب حول إقبال باللغتين الإنجليزية والأردية، وبلغت أعدادها إلى أكثر من 170 عدداً، وفي عام 1985م قررت أن تخاطب قُراء الفارسية والعربية والتركية، فأصدرت مجلة «إقباليات» وبلغ الإصدار الفارسي عشرون عدداً والإصدار العربي خمسة أعداد، والإصدار التركي ثلاثة أعداد..

* في السنوات الأخيرة أعادت أكاديمية إقبال إصدار أعماله الشعرية الكاملة بالأردية وأعماله الشعرية الكاملة بالفارسية، كما أعادت طبع كتابه الشهير «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام» بالإنجليزية، وترجمته إلى الأسبانية والألمانية، وأطلقت موقعه على الإنترنت، وتمنح أكاديمية إقبال «جائزة إقبال» لمن يكتب دراسة متميزة عن أي جانب من جوانب فلسفة إقبال وشعره، أما الخطط المستقبلية للأكاديمية «أكاديمية إقبال» فإنها تسعى إلى إصدار مزيد من الدراسات حول الفكر الإقبالي وتعمل على إنشاء بنك معلومات للأساتذة الذين تخصصوا في الفكر الإقبالي، وتتعاون أكاديمية

إقبال حاليا مع الجمهورية الإسلامية في إيران لإصدار فيلم وثائقي عن سيرة ومسيرة إقبال، وغير ذلك من الأنشطة والخطط..

* ومن هذه النواة نمت مؤسسات عدة أخرى تهتم بالفكر الإقبالي منها أكاديمية إقبال الأسكندنافية في الدنمارك، أكاديمية إقبال في تورنتو كندا، أكاديمية إقبال في دكا، أكاديمية إقبال في حيدر أباد «الدكن»، مؤسسة إقبال في بورما، كرسي إقبال في جامعة كلكتا في الهند، مؤسسة إقبال في جامعة جامبو وكشمير، أكاديمية إقبال في المملكة المتحدة، أكاديمية إقبال في إندونيسيا، جماعة أصدقاء إقبال في القاهرة..

* ويمكن القول إن هذا الاهتمام العالمي المتنامي في العالم «بإقبال» بل والتخطيط لنشر فكره وشعره في العالم، بعد مرور كل هذه السنوات على وفاته عام 1938م. وهو ما يدل على أن فكر محمد إقبال تميز بقدرته على الاستمرار في الزمن وأنه لم يستنفد أغراضه بعد.

* كان أول مَنْ اهتم بإقبال في العالم العربي هو الدكتور عبد الوهاب عزام الذي عاصر محمد إقبال وكتب سيرته الذاتية «محمد إقبال وسيرته وفلسفته وشعره» وقد صدر هذا الكتاب في طبعتين متواليتين كما ترجم ديوانيه «رسالة الشرق ـ بيام الشرق»،

و«أسرار خودي» إلى العربية، كما نقل الشيخ صاوي شعلان المصري ديوانه «صلصلة الجرس» إلى العربية نثرا ثم صاغه بالعربية شعرا واختارت سيدة الغناء بعض أبيات قصيدتي شكوى ورد الشكوى وغنتهما تحت عنوان «حديث الروح»، أما ديوانه «هدية الحجاز» فقد تمت ترجمته للعربية أيضا أما كتابه الأشهر «إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام» فقد ترجمه الأديب الكبير عباس محمود العقاد إلى العربية عام 1952م أما الأعمال التي كتبت حول سيرته وحياته وأعماله فهي أكثر من أن تحصى.

* يمكن القول إن محمد إقبال العلامة والفيلسوف كان ولا يزال من أهم مفكري القرن العشرين الذين أثروا فيه في الأدب والفكر والسياسة على السواء.

أسرته ونسبه

هناك اتفاق بين المؤرخين على أنه يرجع نسب أسرة محمد إقبال إلى براهمة كشمير وأن أحد أجداده وهو جد والده أسلم قبل ثلاثة قرون في عهد الدولة المغولية وقد أسلم هذا الجد على يد الشيخ شاه همداني أحد الأئمة في الهند في ذلك العصر...

* هاجر هذا الجد واسمه «محمد رفيق» من قرية لوهر في كشمير مع أسرته إلى مدينة «سيالكوت» من ولاية البنجاب، وهاجر معه أيضاً كثير من أهل كشمير إلى سيالكوت طلبا للرزق إذا كانت أقرب المدن إلى بلادهم وكان كثير من أهل «سيالكوت» من أصول كشميرية.

* حل الشيخ محمد رفيق جد محمد إقبال في سيالكوت ومعه أخوته الثلاثة كان أحدهم الشيخ محمد رمضان العلامة الصوفي، وسعى الشيخ محمد رفيق في طلب الرزق يعينه ابنه «محمد نور» والد «محمد إقبال»

* وقد ذكر محمد إقبال في مواضع كثيرة من شعره أنه من سلالة

البراهمة وأنه لا يفخر بذلك بل يفخر بأنه رجل من سلالة البراهمة أدرك الإسلام وحقائق الإسلام وأسراره ما أدرك.

* كانا والداه صالحين تقيين، فأما أبوه فكان متصوفاً عاملاً قادحاً في كسب رزقه يعمل لدينه ودنياه، وكانت أم إقبال تقية ورعه لأبعد الحدود، وعمر والده «محمد نور» زهاء مائة سنة وكف بصره في سن الثمانين وتوفي يوم 17 من أغسطس «آب» عام 1930م أما والدته فقد توفيت في 14 من تشرين الثاني عام 1914 وسنها ثماني وسبعون عاماً.

* ولد محمد إقبال في الرابع والعشرين من ذي الحجة عام 1289هـ الموافق 22 من فبراير شباط عام 1873م. ولم يأبه أحد بمولد هذا الطفل إلا كما تأبه أسرة فقيرة بمولد ابن فيها ولكن الله تعالى كان يعلم يوم مولد إقبال أنه قد وُلد في هذا البيت الصغير في مدينة «سيالكوت» رجل سيعلو فكره وقلبه حدود الأوطان والأزمان ويروى أن والده رأى قبل مولده حمامة بيضاء ناصعة تطير فتقع في حجره وتسكن إليه، وعُبرت الرؤيا أنه سيُرزق ابنا عظيم الجد والإقبال يعلو على الناس لذا سماه «محمد إقبال».

طفولتـــه

شب محمد إقبال منذ طفولته على العلم والتعلم، فقد بدأ محمد إقبال التعليم في طفولته على يد أبيه ثم أدخل مكتبا ليتعلم القرآن، ولا تذكر المراجع التاريخية كم حفظ محمد إقبال من كتاب الله في طفولته، ولا ريب أنه قد حفظ كثيرا منه في هذه السن المبكرة وبعدها إذ كان في كبره يقوم بتحفيظ القرآن وتعليمه، وكثرة اقتباسه من القرآن الكريم في شعره تدل على أن القرآن الكريم كان في قلبه ولسانه، ثم أدخل الصبي محمد إقبال مدرسة البعثة الأسكوتية في سيالكوت، ويقال إن أباه أدخله هذه المدرسة ليكون في رعاية صديقه «مير حسن» وكان أستاذا أديبا متضلعا في الأدب الفارسي عارفاً باللغة العربية..

ـ وقد امتاز محمد إقبال منذ نعومة أظافره بذكائه وجده وفاق أترابه ونال جوائز عديدة ومن نوادره أنه وهو في سن العاشرة جاء إلى المدرسة متأخراً فسئل عن تأخره فقال: الإقبال يأتي متأخراً!!

ـ وحينما كان في السنة الرابعة الأولية أخذه والده إلى صديقه

«مير حسن» وقال له أريد أن تعلمه الدين بدل ما يتعلم في المدرسة، فأجاب الأستاذ «مير حسن» قائلاً: هذا الصبي ليس لتعليم المساجد وحدها، وبقي في المدرسة وأدخل أيضاً مكتبا ليتعلم القرآن الكريم ولبث محمد إقبال من ذلك الحين إلى أن أتم الدراسة في كلية البعثة الأسكوتية في رعاية «مير حسن» الذي رأى من ذكائه ومخايلة الكثير بل ومن قوله وفعله مما زاده إعجاباً به وتأميلاً فيه فعنى بتلقينه الدين واللغة العربية والفارسية، ولما رآه ينظم الشعر وعرف موهبته فيه، أرشده وحرضه وحسن له أن ينظم باللغة الأردية مكان البنجابية..

* وكان إقبال في مرحلة الصبا من عمره ينشد الشعر ويزداد على مر الأيام إحسانا فيه، وكان يُرسل بين الحين والحين شعره إلى الشاعر «داغ» أحد شعراء الأردية النابهين، ونظر «داغ» في قصائد «إقبال» ثم كتب إليه أن لا ترسل إليَّ شعرك فما يحتاج إلى تنقيح، وعاش «داغ» حتى ذاع صيت «إقبال» وبلغ في الشعر ما بلغ، فكان يفخر بأنه نقح شعر إقبال في صباه.

* وفرغ محمد إقبال من الدراسة في الكلية الأسكوتية عام 1895م وسنه زهاء اثنين وعشرين عاما.

شبابـــه

في شبابه انتقل محمد إقبال إلى لاهور إحدى مدن الهند الكبرى ودخل كلية الحكومة في هذه المدينة ليتم تعليمه، وكان موضع الإعجاب في ذكائه وعلمه وأدبه، واستمر محمد إقبال في دراسته حتى نال الدرجة التي تسمى في نظام التعليم الإنجليزي «B.A» وتفوق في اللغة العربية والإنجليزية ونال جوائز التفوق العلمي فيهما عام 1897م. ثم تابع دراسته إلى درجة « M.A» ليحصل على الدرجة الجامعية في الفلسفة، وتتلمذ على يد السير «توماس أرنلد» الذي كان أستاذ اللغة العربية في جامعة لندن ثم أستاذا للفلسفة في جامعة عليكرة فكلية الحكومة في لاهور وعرف فيه التواضع والتثبت..

* فرغ محمد إقبال من تحصيل العلم في الكلية، فاختير لتدريس التاريخ والفلسفة في الكلية الشرقية في لاهور، ثم نُصب لتدريس الفلسفة واللغة الإنجليزية بكلية الحكومة التي تخرج فيها..

* نال محمد إقبال إعجاب تلاميذه وزملائه بسعة علمه وحُسن

خلقه وسداد رأيه واتجهت الأبصار إليه، وذاع ذكره حتى صار من أساتذة لاهور النابهين، في ذلك الحين دخل في خدمته الوفي «على بخش» الذي صحبه طول حياته وصحب أولاده بعد مماته، ويمكن القول إن ملازمة هذا الرجل لمحمد إقبال منذ تعامله معه حتى فرق بينهما الموت يدل على لين «محمد إقبال» ويُسر معاملته.

* لبث «محمد إقبال» في لاهور عشر سنين منذ أن قدم إليها من سيالكوت إلى أن سافر إلى أوروبا.

* لقد أتم «محمد إقبال» دراسته في الكلية الحكومية، ثم درَّس في الكلية الإسلامية فالكلية التي تخرج فيها، فعرفت مدارس «لاهور» ومجامع الأدب فيها شاباً وسيما قويا يتقد ذكاء وشوقا إلى المعرفة ويتطلع إلى التزود من العلم إلى غير نهاية.

* في هذه المرحلة من شبابه دوى صوت «محمد إقبال» في محافل الأدب ينشد قصائده، وحرصت الصحف على نشر شعره.

«ومضات من حياة محمد إقبال»

سفره إلى أوروبا

كان سفر «محمد إقبال» إلى أوروبا أولى ومضات حياته الفكرية لقد عزم إقبال على الرحيل إلى أوروبـا للتزود من العلم، اتباعا لمشورة السير توماس آرنولد، وسنه يومئذ اثنتان وثلاثون سنة.

وخرج معه بعض أصدقائه لتوديعه إلى دلهي. وبلغ إقبال وصحبه مدينة دلهي صباح الثاني من شهر أيلول سنة 1905م. فاستقبلهم في محطة دلهي جماعة فيهم السيد حسن نظامي الدهلوي من أحفاد نظام الدين أوليا، وبعد أن استراح قليلا في دار أحد مستقبليه توجه إلى مزار الشيخ نظام الدين أوليا، وهو من أعظم مزارات الهند مكانة وأكثرها قصادا، وهو في أطراف مدينة دلهي.

وفي طريقه مر على مزار السلطان همايون ثاني ملوك الدولة المغولية، وهو أول مزار شيد لملوك هذه الدولة في الهند. فقد توفي أبوه بابر مؤسس الدولة في كابل ودفن فيها.

ولما بلغ مزار نظام الدين أنشد قصيدة باللغة الأردية إنشادا شاجيا.

يقول في هذه القصيدة بعد مدح نظام الدين:

أسيرُ عن الوطن الجميل، تجذبني لذة شراب المعرفة. إني شجرة برية ترمق سحاب الجود.

ويقول:

مُنْيَتي أن أكون خادم خلق الله ما حييت، لا أتمنى عمرًا خالدًا

منيتي أن أضع جبيني على أقدام الوالدين.

وفي هذه القصيدة نفحات من شعر إقبال ومن فلسفته، الفلسفة والشعر اللذين شاعا من بعد فملآ الآفاق نورا ونارا.

وخرج من المزار إلى دار السيد حسن نظامي، فتلبث بها قليلا.

ثم رجع إلى مدينة دلهي، ومر في طريقه على قبر الشاعر الكبير الذي هو أعظم شعراء المسلمين في الهند قبل إقبال، ميرزا أسد الله غالب المتوفي سنة 1869م.

إقبال في أوروبا

توجه إقبال إلى بمباي، فركب سفينة قاصدا إنجلترا، والتحق بجامعة كمبردج لدراسة الفلسفة، وتتلمذ للأستاذ الدكتور ميكتاكرت.

وعكف على المطالعة في مكتبة الجامعة، ونال من هذه الجامعة درجة في فلسفة الأخلاق، ثم سافر إلى ألمانيا فتعلم الألمانية في زمن قليل، والتحق بجامعة ميونخ. وكتب رسالته «تطور ما وراء الطبيعة في فارس»، وهي أول كتاب في الفلسفة عرف الناس بمقدرة إقبال على النظر والبحث، وسعة اطلاعه في الفلسفة. وقد أهدى الكتاب إلى أستاذه توماس آرنلد، ونشره في لندن.

ثم عاد إقبال إلى لندن، فدرس القانون، وجاز امتحان المحاماة، والتحق كذلك بمدرسة العلوم السياسية زمنا.

وكان الأستاذ آرنلد حينئذ أستاذ العربية في جامعة لندن، واضطر إلى الانقطاع عن عمله ثلاثة أشهر، فاختار إقبالا ليخلفه في عمله.

ولم يأل محمد إقبال - وهو في أوروبا - في لقاء العلماء والتحدث إليهم ومداولة الرأي معهم في قضايا من العلم والفلسفة. وكان كدأبه طول عمره مولعا بالقراءة والاستزادة من المعرفة جهد الطاقة.

وكان إقبال في أوروبا ذلك الحين كثير التحدث عن الإسلام وثقافته وحضارته، وألقى محاضرات في الإسلام نشرتها الصحف الكبيرة، وقد دلت آراؤه وشعره من بعد، أنه لم يعجب بحضارة أوروبا، ولم يخل عليه تمويهها، ولا أبرق عينه لألاؤها.

وكان بعد أن علم ما علم ورأى ما رأى في الهند وأوروبا يتنازعه طريقتان في الحياة؛ طريقة العمل وطريقة الفكر. وبدا له حينا أن يهجر الشعر ويغامر فيما يغامر الناس فيه، ولكن صديقه السير عبد القادر وأستاذه آرنلد حسنا له أن يدوم على نظم الشعر.

وما كان أعظمها خسارة للأدب الإسلامي وأدب العالم كله وللإنسانية جميعها لو هجر إقبال الشعر فلم يخرج للناس دواوينه التسعة.

إقبال في وطنه

لبث إقبال في أوروبا زهاء ثلاث سنين، ثم رجع إلى وطنه سنة 1908م.

ولما مر بدلهي استقبله أصدقاؤه وعارفوه كما ودعوه قبل ثلاث سنين. وذهب إلى مزار نظام الدين أوليا كما ذهب إليه حين سفره إلى أوروبا.

عنى إقبال بهذه الزيارة أن يبين أنه على العهد لم يغيره السفر إلى أوروبا، ولم يرعه ما رأى فيها وما سمع، ولم تفتنه فتنتها ولا سحرته حضارتها؟ والحق أنه نظر واعتبر، وملك عقله وقلبه.

بلغ إقبال لاهور في السابع والعشرين من حزيران سنة 1908م واحتفل كثير من أهل لاهور بعودته بعد غيبة ثلاث سنين، وتعددت المجامع للترحيب بعود الرجل النابغ الذي افتقده أصحابه والمعجبون به زمنا طويلا، وأنشدت في هذه المجامع قصائد جاء في واحدة منها بيت معناه:

طال حنينُنا إلى شعرِك يا من طبَّق الآفاقُ صيته في الشعر.

وفي هذا دلالة على أن الناس كانوا ألفوا أن يقرءوا شعر إقبال في الفينة بعد الفينة، فافتقدوه في هذه الفترة.

(1) في المحاماة

نال إقبال إجازة القانون في لندن، وهو اليوم في لاهور يمتهن المحاماة، وكان لإقبال من ذكائه وعلمه وبيانه ما يؤهله لأن يبلغ في المحاماة أعلى الدرجات، ولكن الرجل خلق لغيرها، ورشح لما هو أجل وأعلى. وإنما أراد بها كسب الكفاف ليفرغ للرسالة التي حملها في هذه الحياة، الرسالة التي تنطق بها فلسفته وسيرته وشعره ونثره.

كان يسأل وكيله كم عندك؟ فإن عرف أن عنده ما ينفق منه إلى آخر الشهر لم يرغب في قبول قضايا حتى الشهر التالي، وأنه كان لا يقبل وكالة في قضية حتى يعلم أن وكيله محق في القضية التي يوكله فيها، وأنه يستطيع أن يأخذ به حقه.

وقد داوم على المحاماة حتى سنة 1934م قبل وفاته بأربع سنوات إذ اضطره المرض إلى تركها.

وسئل مرة ألم ينسه عمله الكثير يوما قضية من قضاياه. فقال: كنت في مكتبة المحكمة فجاءني أحد موكِلي يخبرني أن قضيته أمام القاضي. قلت إن لقضيتك يوما آخر. ولكنه ألح علي أن أذهب معه

إلى قاعة القضاء. فقلت للقاضي: إن لقضية الرجل موعدا آخر. فنظر القاضي في الأوراق فتبين أن القضية قدمت إليه خطأ قبل موعدها.

وفي هذه القصة دلالة على أن الشاعر الفيلسوف السياسي لم يشغله الشعر والفلسفة والسياسة عن قضاياه ومواعيده.

(2) في التعليم

رجع إقبال إلى التدريس في كلية الحكومة التي تخرج فيها، والتي درس بها من قبل، فعلم الفلسفة والأدب العربي والأدب الإنجليزي. وكان راتبه منها خمسمائة روبية.

ثم استقال من الكلية بعد أن عمل بها نحو سنة ونصف، واكتفى بالمحاماة.

ويقول خادمه الوفي، علي بخش:

سألته حين استقال من الكلية لماذا استقلت؟ فأجاب: يا علي بخش إن خدمة الإنجليز عسيرة، وأعسر ما فيها أني لا أستطيع أن أحدث الناس بما في نفسي ما دمت في خدمتهم. وأنا اليوم حر، ما شئت قلت، وما شئت فعلت.

استقالة إقبال من الكلية لم تقطع صلته بالجامعة؛ فكان يعمل في

مجالسها ولجانها. وقد لبث سنين عميدا لكلية الدراسات الشرقية ورئيسا لقسم الدراسات الفلسفية.

ويظهر أن النظام الإنجليزي في الجامعات يجيز أن يتولى أستاذ مثل هذه الأعمال دون أن يكون موظفا في الجامعة.

وكان ذا صلة دائمة بالكلية الإسلامية في لاهور، وكذلك كان كثير الاهتمام بالجامعة الملية في دلهي، دائم الاتصال بها.

وفي مؤتمر المستديرة عمل في لجان نظرت في إصلاح التعليم في الهند.

وفي سنة 1923م دعي هو والشيخ سليمان الندوي والسير رأس مسعود إلى كابل للنظر في التعليم عامة، وفي نظام جامعة كابل خاصة. وعملت حكومة الأفغان بأكثر ما أوصى به.

وأعظم ما أمد به إقبال التعليم والتربية، فلسفته في الذاتية. وقد طبقها على التربية والتعليم والفنون في كثير من شعره.

وقد كتب في هذا أحد المعلمين النابهين الأستاذ سيدين كتابا اسمه فلسفة إقبال التعليمية.

محاضرات في أرجاء الهند

كان العلامة إقبال دائم الاتصال بمعاهد العلم في لاهور وغيرها،

وكانت الجامعات تدعوه إلى زيارتها والمحاضرة فيها.

دعي إلى مدارس سنة 1928م، فألقى محاضرات هناك، وبدأ محاضراته الست التي أكملها، والتي جمعت فسميت: «إصلاح الأفكار الدينية في الإسلام». وهي أعظم ما كتب إقبال في الفلسفة.

ثم ذهب إلى بنكلور في إمارة ميسور أوائل سنة 1929م فلقي حفاوة بالغة، ودعاه المهاراجا إلى مدينة ميسور فذهب إليها، وحاضر في جامعتها، واحتفل الناس به كثيرا. وقال أحد أساتذة الهنادك في إحدى الحفلات:

يقول المسلمون: إن الدكتور إقبالا لهم، والحق أنه لنا جميعا لا يختص جماعة أو دينا. فإن افتخر المسلمون بأنه أخوهم في الدين فنحن نفتخر بأن إقبالا هندي.

وفي هذه السفرة زار إقبال قبر السلطان حيدر علي وقبر ابنه السلطان تيبو، وأصغى في خشوع إلى قصيدة أنشدها شاعر على قبر «تيبو سلطان». وإقبال من المعجبين بهذا الملك، وقد ذكره في كثير من شعره، شأنه في الإعجاب بالأحرار الشجعان المجاهدين الذين يلقون الموت في سبيل الحق صابرين راضين محتسبين. والسلطان تيبو - ويسمى في الهند تيبو سلطان - جاهد الإنجليز جهادا كبيرا ولم

يقعده عن جهادهم إلا الموت.

وقد اجتهد في أن يستعين على الإنجليز ببعض الدول الإسلامية، كما حاول أن يحالف نابليون عليهم. وكان نابليون حينئذ في مصر. وقد جمع له الإنجليز ما استطاعوا وحاصروه. فلما يئس من النصر أنف عن ذل الأسر، فألقى بنفسه من قلعة فمات سنة 1213هـ.

ثم توجه إقبال إلى حيدر آباد فبلغها في الرابع عشر من كانون الثاني، وازدحم الناس لاستقباله. واصطف الصبيان ينشدون نشيد إقبال القومي. ودعاه نظام حيدر آباد فنزل في ضيافته أياما.

في الجامعة الإسلامية

وبعد أشهر عاد إقبال إلى الجامعة الإسلامية في دلهي، فألقى محاضرة موضوعها السفر من لندن إلى قرطبة. وحدث في هذه المحاضرة عن لقائه بالفيلسوف برجسون في باريس وتحدُّثه معه في الفلسفة وفي أمور من الإسلام كان يجهلها الفيلسوف.

وفي هذا الصدد أذكر ما روي عن إقبال أنه حدث برجسون في الزمان ـ ولهذا الفيلسوف نظرية فيه توافق فلسفة إقبال من بعض الوجوه، وأن برجسون وثب من كرسيه عجبا حينما ذكر إقبال الأثر المعروف: «لا تسبوا الدهرَ فإنَّ الله هو الدهرُ.» وهذا الأثر مضمن

في شعر إقبال في منظومته رموز بي خودي.

احتفل بإقبال في الجامعة الإسلامية وتكلم كثير في الإشادة بأدبه، وكان ممن تكلم هناك مولانا أسلم الجراجبوري، فقال:

قرأت الشعر بالعربية والفارسية والأردية. ولا حرج على أن أقول إن إقبالا أعظم شعراء المسلمين؛ إن كلامه ليفيض بالحقائق الإسلامية، ولقد هدى ناشئتنا سواء السبيل. إن إقبالا حذق علوم الغرب، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التي بصرتهم بحقيقة الإسلام وعظمته، وملأت قلوب الشباب الغافل النائم، بحب الرسول والقرآن.

ومنحت جامعة عليكرة وجامعة إله آباد إقبالا لقب دكتور قدرا لمكانته في الأدب واعترافا بفضله.

سفره إلى أفغانستان

دعا نادر شاه ملك الأفغان محمد إقبال إلى أفغانستان، ودعا معه السير رأس مسعود والشيخ سليمان الندوي، دعاهم ليشيروا على حكومته في أمور الدين والتعليم.

وبلغ إقبال وصاحباه كابل في آخر تشرين الأول سنة 1933م، فاحتفى بهم الملك والحكومة والكُبراء والأدباء. ثم أشاروا على الحكومة بما رأوا فيه صلاح التعليم؛ فعملت بكثير مما أشاروا به.

وفي هذه السفرة ذهب الشاعر العظيم المولع بتاريخ الإسلام وسير عظمائه في غزنة وقندهار، فزار قبر مكسر الأصنام يمين الدولة وأمين الملة السلطان محمود الغزنوي، وزار قبر الشاعر الصوفي الكبير مجد الدين سنائي. وله قصائد بليغة في هذين المشهدين وغيرهما مما رأى في أفغانستان.

وقد خلد هذه الرحلة بمنظومته «مسافر»، كما سجلها الشيخ سيد سليمان الندوي في كتاب.

(3) في السياسة

فلسفة إقبال فلسفة أمل وعمل وجهاد وإقدام، ودعوة عزة وكرامة وحرية. فهي مدد للأمم المجاهدة لحريتها وكرامتها، تبعث فيها النور والنار.

وقد وجه دعوته إلى البشر عامة، والمسلمين خاصة، وأخذ من التاريخ الإسلامي أمثلة لفلسفته وصورا لشعره.

كان شعره، وما يزال، أناشيد لمسلمي الهند المجاهدين.ولا ريب أن شعر إقبال أشعل في نفوسهم ثورة على سلطان الإنجليز في الهند، وأمد المجاهدين بالأمل والعزم والإقدام.

وقد شارك إقبال، إلى هذا، في سياسة بلاده بأقواله وأفعاله، ورأس مجامع سياسة. وكان عمادا قويا لحزب الرابطة الإسلامية.

وحسب رجل أن يقول فيه القائد الأعظم محمد علي جناح: كان لي صديقا، وإماما وفيلسوفا. وكان فى أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخا كالصخرة. لم يزلزل لحظة واحدة قط.

وألح عليه أصدقاؤه سنة 1926م أن يرشح نفسه في انتخاب الجمعية التشريعية في بنجاب، فأيده الناس وانتخب بغير عناء. ولا تزال خطبه في هذه الجمعية شاهدة بعمله فيها.

وقد عمل في حزب الرابطة الإسلامية ورأس الاجتماع السنوي في إله آباد سنة 1930م. وكانت أحوال مسلمي الهند حينئذ تعظم الشقة والتبعة على مَنْ يتصدى لقيادتهم. وفي هذا الاجتماع ألقى خطبة مسهبة دعم فيها آراءه بحجج من الفلسفة والاجتماع والأخلاق. ونبه الناس إلى أن اتحاد الهند عسير في هذه الأحوال، ولا سبيل إلى جمع الكلمة إلا باعتراف كل جماعة في الهند بالجماعات الأخرى، والتعاون بين الجماعات المختلفة.

قال: «إن رينان الفيلسوف الفرنسي يقول: إن الإنسان ليس أسيرا للجنس والدين ولا لمجاري الأنهار وسلاسل الجبال، ولكن كل جماعة كبيرة من البشر، صحيحة العقل حية القلب، ينشأ فيها شعور يجمعها، تسمى أمة».

يعني أن الأمة لا تنشأ بالأقوام والأوطان، ولكن بالشعور الذي يربط آحادها.

ثم قال إقبال: إن الفرق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التغاضي عن أشخاصها من أجل الوحدة الهندية، حتى ينشأ لها هذا الشعور الذي ينشئ الأمة. إن لهذا الشعور ثمنا يأبى أهل الهند أن يؤدوه.

فينبغي إذا ألا نلتمس اتحاد الهند في محو الفوارق بين الجماعات، بل نلتمسه في الاعتراف باختلاف الجماعات والعمل للتعاون بينها.

إن السياسي ينبغي أن يعترف بالحقائق الماثلة ويستفيد منها جهد الطاقة. وإن وجدنا وسائل للتعاون الحق، يحل السلام والصفاء في هذه الأرض العتيقة، وتحل مشاكل آسيا السياسية كلها. إنا ليحزننا أن نرى إخفاقنا في مساعينا إلى الاتفاق على ما يحقق السلام بيننا.»

ويتصل بهذه الخطبة خطبته في المؤتمر الإسلامي حينما تولى رياسة اجتماعه السنوي سنة 1932م. قال فيها:

أنا لا أقبل الوطنية كما تعرفها أوروبا، وليس إنكاري إياها خوفا من أن تضر بمصالح المسلمين في الهند، ولكن أنكرها لأني أرى فيها بذور المادية الملحدة، وهي عندي أعظم خطرا على الإنسانية في عصرنا.

لا ريب أن الوطنية لها مكانها وأثرها في حياة الإنسان الأخلاقية، ولكن العبرة في الحقيقة بإيمان الإنسان وثقافته وسننه التاريخية. هذه هي في رأيي الأشياء التي تستحق أن يعيش لها الإنسان ويموت من أجلها، لا بقعة الأرض التي اتصلت بها روح الإنسان اتفاقا.

وفي هذا توكيد لما قال من قبل عن مقومات الأمم في خطبته سنة 1930م. وكتب إقبال إلى محمد علي جناح رئيس الرابطة الإسلامية الملقب القائد الأعظم سنة 1937م، فقال فيما قال:

إن خير وسيلة إلى السلام في الهند في هذه الأحوال أن تقسم البلاد على قواعد جنسية ودينية ولغوية.

كان إقبال أول من دعا إلى أن تقسم الهند فيكون للمسلمين بها موطن يخصهم؛ إذ رأى محالا أن يعيش سكان الهند جماعة واحدة أو جماعتين متعاونتين.

وكانت هذه، في رأي الناس، دعوة عجيبة لقيها بعضهم بالتعجب والسخرية، ورآها بعضهم حلم رجل مجنون.

واشترك إقبال في مؤتمر الطاولة المستديرة سنة 1931م و1932م في لندن، وكان المؤتمر ينظر في دستور جديد للهند. وكان لأقواله وأعماله أثر بين في أعمال المؤتمر. وقد مر في سفره بروما وأقام بالقاهرة أياما.

وقد احتفلت بمقدمه جمعية الشبان المسلمين.

وألقى محاضرة باللغة الإنكليزية تكلم فيها عن تطور الفكر الإسلامي.

وفي السنة التالية شهد مؤتمر الطاولة المستديرة الثالث، وفي عودته مر بإسبانيا، ورأى آثار المسلمين فيها، فأوحت إليه شعرا منه قصيدته الخالدة في جامع قرطبة. وقد استأذن حكومة إسبانيا في أن يصلي بالجامع، ولعلها أول صلاة فيه منذ غابت شمس الإسلام عن قرطبة.

والذي يرى صورة شاعرنا الفيلسوف المسلم الغيور مصليا في جامع قرطبة، يقرأ قصيدة بليغة، ويتخيل ما جال في فكر شاعر الإسلام في هذا المقام الهائل، والمشهد الرائع.

لقد نظم إقبال نفسه هذه القصيدة، ونشرت في ديوان بال جبريل. وهي إحدى بدائعه. لا يفوق شاعر إقبالا فيما نظم في جامع قرطبة.

ولما أعيد تنظيم الرابطة الإسلامية سنة 1935م انتخب إقبال رئيس شعبة الرابطة في بنجاب، وذلكم قبل وفاته بثلاث سنين.

ولم يعجز إقبالا مرضه المزمن، عن التفكير والعمل والكتابة ونظم الشعر، ورسائله التي كتبها في آخر حياته إلى القائد الأعظم وغيره شاهدة بوقدة قلبه، وذكاء عقله ومضيه في جهاده على العلات وتمطره في حلبته حتى الممات.

لقب «سير»

في سنة 1932م قدم لاهور صحفي إنجليزي ساح في المشرق، وسمع صيت إقبال الأدبي في أوروبا وبلاد الشرق. فأشار على حكومة بنجاب أن تمنح الشاعر الكبير لقب سير. فدعي إقبال إلى دار حاكم بنجاب الإنجليزي لأول مرة. وقد حكي أحد أصدقائه؛ أنه لم يرغب في إجابة الدعوة وأنه ألح عليه وحمله في عربته إلى دار الحاكم، ثم اقترحت له ألقاب أقل من رتبة سير فأباها، ثم عرض عليه لقب سير فرغب عنه ولكن أحد كبار أصدقائه أصر على قبوله. فقبل على شرط أن يمنح أستاذه مير حسن، لقب شمس العلماء. وهو الأستاذ الذي ثقفه في الأدب العربي والفارسي. ولم يكن الأستاذ ذا صيت يسوغ منحه هذا اللقب، ولكن إقبالا أصر عليه فقلبه الحاكم.

وقد أخذ بعض الناس إقبالا بقبول هذا اللقب من الإنجليز وأذاعوا عنه أقاويل. ونشرت بعض الصحف نظما ونثرا فيهما هزؤ بالشاعر الثائر داعية الحرية. ولكن أصدقاءه والمعجبين به احتفلوا بهذه المنحة احتفالا كبيرا عند قبر جهانكير في ضواحي لاهور. وشارك الهنادك والسيك، المسلمين في هذا الاحتفال.

وما كان لقبول هذا اللقب أثر ما في نفس الشاعر الفيلسوف وعمله. وما زال طول حياته ينفث شعره في النفوس حياة وقوة وإباء

وجهادا ودعوة إلى الحرية وثورة على الجبروت، وإيقاظا للمسلمين خاصة، وتبصيرا لهم بمكانهم في هذا العالم ومكانتهم في تاريخه. وما أعرف كشعر إقبال دعوة إلى الثورة على الاستعباد والتمرد على الطغيان، وإلى لقاء الشدائد في هذه الحياة بأكبر منها أملا وعزما وجهادا.

(4) مرضه

شرعت العلل تعتري الشاعر الفياض، الذي يخيل إلى قارئه أنه لا يفتر ولا يمل ولا يمرض ولا يموت.

أصابته حصاة في الكلية، فعالجه الحكيم البصير الدهلوي فنجع علاجه.

وفي سنة 1935م بح صوته، وجهد كثير من الأطباء في شفائه، فلم يجد جهدهم حتى عالجه الحكيم البصير فخفت العلة قليلا.

وفي السنة نفسها توفيت زوجه، فبلغ موتها من نفسه، وأحزنه كثيرا.

وترادفت علل أصاب بعضها القلب، واستمرت تنقص من قوته شيئا فشيئا، تنقص من قوة جسمه ولا تنال من عقله وروحه. فلم يَفتر عن نظم الشعر، ولم ينقطع عن التفكير والبيان حتى الأيام الأخيرة.

واشتدت العلة في شهر نيسان 1938م، وبلغت مبلغ الخطر في التاسع عشر من الشهر. وعني الأطباء به كل عناية، فما أغنى حرصهم على شفائه شيئا.

وكان ـ رحمه الله ـ يحس دنو أجله ويذكره غير هائب ولا جازع. وكان يردد قبل موته ببضعة أيام أن المسلم يلقي الموت مسرورا. وقال لصديق ألماني قبل وفاته بيوم: إني مسلم لا أرهب الموت، إذا جاء الموت لقيته مبتسما.

وفي مساء العشرين من نيسان دخل عليه ابنه جاويد وسنه حينئذ ثلاث عشرة سنة. فقال له: هلم إلى يا بني! اجلس، فما أدري لعلي ضيف لبضعة أيام. قال أحد الحاضرين: إنه صغير السن يفزعه مرضك. فأجاب: أريد أن يلقى كل حدث لقاء الرجال. وقال لجود هري محمد حسين، وكان من المقربين إليه ووصي على أولاده بعد موته؛ قال له إقبال: كتبت في آخر «جاويد نامه» أبياتا عنوانها «خطاب لجاويد»، وقلت فيها: إن في عصرنا هذا قحطا في الرجال. وعسير فيه الظفر بلقاء رجال الله؛ فإن تكن سعيد الجد لقيت أحد أصحاب البصائر، وإلا فاعمل بهذه النصائح.

ثم قال: وحين يشب جاويد، بعد موتي، أفهمه هذا الشعر.

وفي هذه الليلة سئل عن صحته، فقال: أريد الخلاص من هذه المشقة فورا.

(5) وفاته

روي عن راجه حسن، وكان مع إقبال ليلة وفاته أن إقبالا رحمه الله ـ أنشد قبل موته بنحو عشر دقائق:

نغماتٌ مضينَ لي هل تعود؟ أنسيمٌ من الحجاز يعود؟

آذنت عيشتي بوشك رحيلٍ هل لعلم الأسرار قلبٌ جديدُ؟

ومن شعر إقبال:

آية المؤمن أن يلقي الردى باسم الثغر سرورًا ورضا

وكذلك كان إقبال حين الموت. وضع يده على قلبه قائلا: الآن بلغ الألم هنا. وتأوه وأسلم الروح إلى خالقها وهو مبتسم. وما بدا عليه أثر من سكرات الموت، وكان إلى اللحظة الأخيرة كامل الشعور.

« إنا لله وإنا إليه راجعون.»

عمره عند وفاته

توفي إقبال وعمره بالتوقيت الهجري: سبع وستون سنة وشهر وستة وعشرون يوما، وبالحساب الشمسي خمس وستون سنة وشهر وتسعة وعشرون يوما.

الاحتفال بجنازته ودفنه

شاع في الناس النبأ الفاجع، والخطب الصاعق؛ نعي إقبال. فكان الأسى على قدر حب الناس إياه، وإكبارهم وإعظامهم له، وعلى قدر ما وعت قلوبهم، وأنشدت أفواههم من شعره، وعلى قدر ما نفذت إلى سرائرهم، وأنارت في ضمائرهم أقوال الرجل العظيم الخالد، داعية الحياة والإقدام ومصور الإنسانية في أروع صورها وواصف الحياة في أجمل وجوهها.

عطلت الدواوين والمتاجر، وذهب الناس زرافات ووحدانا إلى «جاويد منزل» دار محمد إقبال.

وهي دار صغيرة، طبقة واحدة، يلج داخلها إلى فناء صغير، ثم يصعد درجات إلى بهو، يفضي إلى حجرتين عن يمين وشمال. إحداهما حجرة مكتب محمد إقبال.

هذه الحجرة التي وسعت الدنيا بل وسعت العالم، بل وسعت ما هو أعظم من العالم وأوسع، قلب المؤمن. كم تنزل في هذه الحجرة وحي الشعر! وكم ازدحمت فيها أفكار الفلسفة!

قبره وتخليده

اتفق جماعة من أصدقاء إقبال وأولي الرأي في المدينة على أن يتخذوا لشاعر الحياة قبرا في فناء المسجد الجامع «شاهي

مسجد»، وهو فناء واسع يفضي إليه من جهة الجنوب باب كبير في سور حول المسجد عال، تمتد معه أبنية كثيرة.

اختيرت بقعة إلى يسار الداخل إلى الفناء، على مقربة من الدرج الكبير الصاعد إلى باب المسجد الرائع، اختيرت هذه البقعة لجثمان إقبال، اتخذت هذه الخزانة لهذا الكنز.

وعلى الضريح صفائح من المرمر. وقد كتب على شاهده: إن محمد نادر شاه ملك الأفغان أمر بصنع هذا الضريح اعترافا منه ومن الأمة الأفغانية بفضل الشاعر.

إن في هذا الضريح الثاوي في حضانة المسجد الكبير، الذي بناه محيي الدين أورنك زيب، الذي بلغت دولة المسلمين في عهده أوج عزتها، والقائم على مقربة من الآثار الرائعة التي خلفها ملوك المسلمين في قلعة لاهور الهائلة؛ إن في هذا الضريح لوحيا لا يفتر، وذكرى لا تنقطع، من حاضر المسلمين وماضيهم، ومن معالي الإسلام وشعر إقبال؛ وإن شعر إقبال ليجلي لقارئه حضارة الإسلام وتاريخه في صور رائعة هائلة، ويفسر هذه الآثار المحيطة تفسيرا جميلا جليلا، وإن من يقرأ شعر إقبال ليستأنف في الإسلام وتاريخه نظرا، ويجد فيه تفكيرا ... ماذا عسى أن يقول قائل في إقبال وضريح إقبال. حسبك أيها القلم. يرحم الله محمد إقبال.

صدى نعيه في الهند

كانت وفاة إقبال حسرة على مسلمي الهند بما فقدوا المرشد الهادي وافتقدوا الدليل الحادي، وبما حرموا هذا الينبوع الثرار بل النهر الهدار.

وقد رددت هذه الحسرة مقالاتهم، ورسائلهم وأشعارهم، وشارك المسلمين غيرهم في الأسى عليه وإكبار فقده.

وقراء العربية أكثرهم لا يعرفون كبراء الهند وأدباءها، فأثبت هنا طرفا من أقوالهم. فحسبي أن أثبت مقال رجلين: أحدهما زعيم سياسي مسلم، وثانيهما شاعر فيلسوف هندوكي، محمد علي جناح رئيس العصبة الإسلامية ومؤسس باكستان. والثاني طاغور الشاعر الذي ذاع ذكره في المشرق والمغرب.

قال محمد علي جناح:

كان شاعرا منقطع النظير، طبق صيته الآفاق. وستبقى كلماته حية أبدا، وإن مساعيه لأمته وبلده لتضعه في صف أكبر كبراء الهند. وإن وفاته اليوم لخسارة كبيرة للهند عامة والمسلمين خاصة.

وقال في خطاب ألقاه في الاحتفال بذكرى إقبال في جامعة بنجاب سنة 1940م:

إن حييت حتى رأيت للمسلمين دولة قائمة في الهند فخيرت بين الرياسة العليا في هذه الدولة المسلمة، وبين كتب إقبال، لم أتردد في اختيار الثانية.

وكتب إلى ابن إقبال بعد وفاته:

كان لي صديقا ومرشدا وفيلسوفا. وكان في أحلك الساعات التي مرت بالرابطة الإسلامية راسخا كالصخرة، لم يزلزل لحظة واحدة قط.

وقال طاغور:

وتركت وفاة إقبال في أدبنا خلاء يشبه جرحا مهلكا، ولن يملأ إلا بعد مدة مديدة، فموت شاعر عالمي كهذا مصيبة لا تحتملها البلاد.

ومما قاله طاغور كذلك:

لا ريب عندي أن ما ناله شعر إقبال من قبول وصيت يرجع إلى ما فيه من نور الأدب الخالد وعظمته. ويؤسفني أن بعض النقاد وضع أدبي وأدب إقبال في ميزان المنافسة، وجهدوا أن يشيعوا أغلاطهم في هذا الشأن. وهذا عمل لا يليق بالأدب الفسيح الذي يخاطب النوع الإنساني كله؛ لأن في ساحة الأدب العالمي يقوم الشعراء وأولو الفن في صف واحد من الأخوة الإنسانية.

ويقيني أني ومحمد إقبال عاملان للصدق والجمال في الأدب. ونحن نلتقي حيث يقدم القلب الإنساني والعقل إلى عالم الإنسانية أجمل هداياهما وأروعها.

الفصل الثاني

محمد إقبال
ومنظومته «أسرار خودي»
«أسرار الذات»

منظومة أسرار خودي[1]

* كانت أول دواوين محمد إقبال الفلسفية بعنوان «أسرار خودي» نشرها عام 1915م وتجلى فيها مذهبه واتضحت طريقته في الفلسفة والشعر.

* كانت منظومة «أسرار خودي» حد بين عهدين في فكر وفلسفة محمد إقبال فالشعر الذي نشر قبلها نفحات من فلسفته ونفحات من شعره متفرقة غير جلية.

* وأسرار خودي تمتاز بأنها منظومة واحدة على القافية المزدوجة ممزوجة بالشعر وعليها رونقه ومعها أخيلته وصوره فهي فلسفة فيها شعر.

* لقد نشرت منظومة أسرار خودي سنة 1915م وثار الناس لها بين راضي وساخط ومستحسن ومستنكر، بل بين مصفق طرباً يثنى عليها معجباً وصائح يتعجب ويستنكر.

* قدم محمد إقبال لهذه المنظومة مقدمة منثورة مجملة بحث

(١) خودي بالفارسية معناها الذات أو الذاتية..

فيها نفس الإنسان ومذاهب الأمم فيها وقد قام بحذف هذه المقدمة بعد الطبعة الأولى ولكنها على إجمالها كانت تبين المذهب الفلسفي الذي ذهب إليه محمد إقبال حين نظمها..

* يبدأ محمد إقبال مقدمته في منظومة «أسرار خودي» بقوله:

هذه الوحدة الوجدانية أو نقطة الشعور المنيرة التي تستنير بها أفكار الإنسان وعواطفه ورغباته أمر تحيطه الأسرار، ينظم ما في فطرة الإنسان من كيفيات متفرقة غير محدودة، ما هذا الشيء الذي نسميه أنا أو «خودي» أو «مين»[1] الذي يبدو في أعماله ويخفي في حقيقته، والذي يخلق كل المشاهدات، ولكن لطاقُته لا تحتمل المشاهدة، أهو حقيقة دائمة أم أن الحياة تجلت في هذا الخيال الخادع، وهذا الكذب النافع، تجليا عرضيا لتحقيق مقاصدها العملية الراهنة؟! إن سيرة الأفراد والجماعات موقوفة على جواب هذا السؤال.. ولكن جواب هذا السؤال لا يتوقف على المقدرة الفكرية في الآحاد والجماعات كما يتوقف على طباعها وفطرتها، فأمم الشرق المتفلسفة أميل إلى أن تعتبر «أنا» في الإنسان من خداع الخيال، وهي تعد الخلاص من هذا الغُل نجاة، وميل أهل الغرب إلى العمل

(١) مين: معناها بالأردية أنا

ساقهم إلى ما يلائم طباعهم.

* ويضيف محمد إقبال في مقدمته لأسرار خودي أو أسرار الذات قائلاً اختلطت في عقول «الهنادك» وقلوبهم النظريات والعمليات اختلاطا عجيبا يقصد بالهنادك «أهالي قومه» وكان معظمهم من أصول هندية ويستطرد قائلاً: ودقق حكماؤهم في حقيقة العمل، وانتهوا إلى هذه النتيجة وهي «إن حياة «أنا» المسلسلة وهي أصل الآلام منشؤها العمل... وأن حانة النفس الإنسانية نتيجة محتومة لأعمالها.

* ولا ريب أن آراءهم جديرة بالإعجاب من جهة الفلسفة ولاسيما جرأتهم على قبول كل نتائج القضية، وقولهم إنه لا سبيل إلى الخلاص من شرك «أنا» إلا ترك العمل، ولكن في هذا خطراً عظيما في حياة الواحد والجماعة، فلم يكن بُد من أن يظهر في الهند مُجدد يُبين حقيقة المقصود من ترك العمل حقًا فالعمل مُقتضي الفطرة وفيه قوة الحياة، بل المقصود ألا يربط قلب الإنسان بالعمل ونتائجه.

* ويضيف محمد إقبال قائلاً: ـ كانت رسالة الإسلام دعوة إلى العمل وهي رسالة بليغة فالإسلام يرى أن «أنا» مخلوق ينال الخلود بالعمل، ولكن هناك تشابها عجيبا في تاريخ الفكر الهندي والإسلامي يظهر في بحث هذه المسألة فالفكرة التي فسر بها

«شنكر اجارية» في كتابه «الجيتاكيتا» هي نفس الفكرة التي فسر بها القرآن محيي الدين بن عربي الأندلسي، وكان له أثر بليغ في عقول المسلمين وقلوبهم، لقد جعل ابن عربي بعلمه ومكانته مسألة وحدة الوجود عنصراً في الفكر الإسلامي، واقتفى أثره أبو حامد أوحد الدين الكرماني وكان من تلاميذ ابن عربي وتتجلى وحدة الوجود في شعره، وله منظومة اسمها مصباح الأرواح فيها بيان طريقته، وكذا الشيخ فخر الدين العراقي حتى اصطبغ بهذه الصبغة كل شعراء العجم في القرن السادس الهجري.

*** ويستطرد محمد إقبال قائلاً:.**

إن مزاج الإيرانيين الرقيق وطبعهم اللطيف لم يصبر على المشقة الفكرية التي لابد منها في السير من الجزء إلى الكل فطووا المرحلة الوعرة التي بين الجزء والكل بالتخيل ورأوا في «عرق السراج» دم الشمس وفي «شرار الحجر» حلوة الطور...

* لقد خاطب فلاسفة الهند العقل في إثبات وحدة الوجود، وخاطب شعراء إيران القلب وكانوا أشد خطرا وأكثر تأثيرا حتى أشاعوا بدقائقهم الشعرية هذه المسألة بين العامة فسلبوا الأمة الإسلامية الرغبة في العمل.. وقال الشيخ على حزين: إن التصوف

جميل في الشعر فدل على أنه عرف حقيقة الأمر ولكن أقواله تدل على أنه لم ينج من تأثير بيئته فكيف كان الفكر الإسلامي في الهند يستطيع المحافظة على نزوعه إلى العمل؟

* يجيب محمد إقبال قائلاً:

- استولت على «مرزا بيدل» لذة السكون، فلم يستحسن حتى طرفة العين ويقول: -

إن في بيت الزجاج لطائف محيرة، فلا تطرف عينك فتخدش صبغة هذا المنظر، وبيت الزجاج «ميناخانه» هو ذلك العالم الذي تقوم فوقه القبة الزرقاء وهو اعتقاد لدى بعض الصوفية الهنود.. والشاعر الهندي «تمتنا بيت» يقول: -

انظر إلى كل ما يأتي أمامك بين أمم العالم بميلها إلى العمل، فآراؤهم خير دليل لأمم المشرق إلى فهم أسرار الحياة..

*** ويضيف محمد إقبال قائلاً:.**

بدأت الفلسفة الجديدة في الغرب من وحدة الوجود التي دعا إليها الفيلسوف الهولندي «عنى اسبنوزا» ولكن مسحة العمل غلبت على طبائع الغرب فلم يلبث طويلاً طلسم وحدة الوجود والتي أثبتت بالأدلة سبق الألمان إلى إثبات حقيقة «أنا» الإنسانية المستقلة ثم

تحرر من هذا الطلسم الخيالي فلاسفة الغرب على مر الزمان ولا سيما الفلاسفة الإنجليز، والحق أن أفكار الإنجليز العملية فضلاً على أمم الأرض كلها تقوم على إحساسات الواقعات عندهم أكثر من الأمم الأخرى، لهذا لم يرج في بلاد الإنجليز حتى اليوم كل نظام فلسفي من نسج الفكر لا يثبت في ضوء الواقعات.

.ويختتم محمد إقبال مقالته قائلا:.

هذه خلاصة تاريخ المسألة التي هي موضوع هذه المنظومة، وقد اجتهدت أن أحرر هذه المسألة الدقيقة من تعقيد الأدلة الفلسفية وألوانها بألوان الخيال ليتيسر إدراك حقيقتها..

ولم أقصد بهذه الديباجة إلى تفسير هذه المنظومة ولكن أردت أن أدل على الطريق من لم يُلم من قبل بدقائق هذه المسألة العسيرة، ولا ينبغي هنا أن أتناول هذه المنظومة من حيث الشعر فإنما خيال الشعر فيها وسيلة إلى توجيه الناس إلى هذه الحقيقة.

ويضيف محمد إقبال قائلاً:.

إن لذة الحياة مرتبطة باستقلال «أنا» وبإثباتها وأحكامها وتوثيقها وهذه الحقيقة تمهد إلى فهم حقيقة «الحياة بعد الموت» وينبغي أن يعلم القُراء أن لفظ خودي لا يستعمل في هذه المنظومة بمعنى الأثرة

كما تستعمل في اللغة الأردية غالباً وإنما معناها الإحساس بالنفس أو تعيين الذات وهي بهذا المعنى في كلمة (خودي) كذلك...

* هذه كانت خلاصة المقدمة التي أثبتها محمد إقبال في الطبقة الأولى من كتابه «أسرار خودي».

كيف تلقى الناس منظومة «أسرار خودي» لمحمد إقبال؟!

* قال بعض الناس لإقبال: ـ أحسنت وأبدعت وعرفت الداء، ووصفت الدواء، وقال له آخرون حدت عن الطريق ولم يصحبك التوفيق، وأنكرت التصوف، وازدريت أئمة الصوفية.

* وكثرت المقالات في القبول والرد، والمدح والثناء، وكان هناك تباين في الرأي فهذا ما كان «لأسرار خودي» من أثر في النفوس..

ويبقى التساؤل لماذا قبلها واستحسنها وأعجب بها نفر، واستنكرها مَنْ استنكر؟! ولعل في بيان هذا وذاك بيانا للجديد في هذه المنظومة، والبدع فيما حوته من آراء.

* تلقى بعض الصوفية دعوة محمد إقبال في أسرار خودي بالاستذكار والرد، إذ وجدوها دعوة إلى «خودي» وهي كلمة تدل في لغتها الفارسية على الأثرة والعُجب والأنوية وما يتصل بها، وتستعمل كذلك في الأردية فهي دعوة في الأخلاق مُنكرة، وفي التصوف أشد نكراً، وقد نقل محمد إقبال «خودي» إلى معنى آخر جعله أصل فلسفة

له، فأراد بها الذاتية وقال في فلسفته: ـ إن العالم قائم بهذه الذاتية، وإن الإنسان بهذه الذاتية يقوم على قدر قوتها وضعفها، بل يخلد أو يغني باستحكامها أو اضمحلالها وإن مقصد الإنسان في هذه الحياة هو معرفة ذاته وتقويتها وتنمية مواهبها، واستنباط ما فيها من فطرة واستنباط ما في فطرتها، وليس من الخير في شيء إنكار الذات أو إضعافها، بل هو الشر كل الشر، ولا ينبغي العمل لفنائها ولا الرضا به كما يفعل «الهنادك» يقصد قومه من الهنود، وصوفية العجم، كما يقول إقبال لا تفنى الذاتية وليس من الخير السعي إلى إفنائها.

* ورأى الصوفية في هذا أمرا منكراً إذ كان التصوف في زعمهم يقصد إلى إذلال النفس وتذليلها وإماتتها حتى تؤهل للفناء، بل ادعى بعض المجادلين أن محمد إقبال كان يُنكر التصوف ويدعو إلى محوه.

* وزاد الصوفية ثورة على العلامة محمد إقبال وقالوا إنه عمد إلى إمام من أئمتهم وشاعر من أعاظم شعرائهم وهو «لسان الغيب حافظ الشيرازي» كما يقولون وإنه حط من شأنه وغض من طريقته ونهى الناس عنه وحذرهم منه واستدلوا بذلك أن محمد إقبال كتب في منظومته «أسرار خودي» أبياتا في حافظ الشيرازي خلاصها ما يلي: ـ

ـ احذر حافظا أسير الصهباء، فإن في كأسه سُم الفناء.

ـ ليس في سوقه إلا المداومة وقد شعث كأسان على رأسه العمامة

ـ ذلكم فقيه ملة المدمنين وإمام أمة المساكين.

ـ شاة عُلمت الغناء والدلال والفتنة العمياء.

ـ هو أذكى من شاة اليونان ونغمة عودة حجاب الأذهان.

ـ فر من كأسه فإن فيها لأهل الفطن خدراً كحشيش أصحاب الحسن وهنا يضرب محمد إقبال الشاة مثلاً للضعف، فلذلك يُسمى حافظاً شاة، وشاة اليونان يقصد به أفلاطون، والحسن يقصد الحسن الصباح إمام الفرقة التي عُرفت باسم الحشاشين.

* وقد حذف محمد إقبال هذه الأبيات بعد الطبعة الأولى ووضع مكانها فصلاً عنوانه «إصلاح الآداب الإسلامية بين فيه المعنى الذي قصد إليه حين حذر من طريقه «حافظ» وشعره «حافظ الشيرازي» ولم يذكر حافظا باللفظ فبلغ ما أراد وكفى نفسه عداء المعجبين بحافظ الشيرازي والمتعصبين له.

.رد «إقبال» على المعترضين عليه.

كان رد «محمد إقبال» على المعترضين عليه يركز على التمييز بين نوعين من التصوف هما التصوف الإسلامي، والتصوف العجمي، والتفريق كذلك بين التوحيد ووحدة الوجود، ولعله يجد في ذلك

تفسيرا لما غمض على الناظرين من فلسفته.

ـ قال في رسالة للسيد «حسن نظامي» مكتوبة في الثلاثين في كانون الأول عام 1915م.

* إني بفطرتي وتربيتي أنزع إلى التصوف، وقد زادتني فلسفة أوروبا نزوعا إليه، فإن فلسفة أوروبا في جملتها تتوجه نحو وحدة الوجود، ولكن تدبر القرآن الكريم ومطالعة تاريخ الإسلام بإمعان أشعراني بغلطي، ومن أجل ما جاء في القرآن الكريم عدلت عن أفكاري الأولى، وجاهدت ميلي الفطري وحدت عن طريق آبائي..

* إن الرهبانية ظهرت في كل أمة وعملت لأبطال الشريعة والقانون والإسلام في حقيقته هو دعوة إلى استذكار هذه الرهبانية، والتصوف الذي ظهر بين المسلمين «أعني التصوف الإيراني» أخذ من رهبانية كل أمة وجهد أن يجذب إليه كل نحلة حتى القرمطية التي قصدت إلى التحلل من الأحكام الشرعية لم تعد نصيراً للصوفية.

* إن اعتراضك لم يعدو مقدمة «أسرار خودي» فلم يتناول المنظومة نفسها، وكيف أعمل قلمي ولست أدري ما اعتراضك عليها، إنما اعترضت على ما حسبته غضاً من قدر حافظ الشيرازي ولن يستبين الحق في هذا الأمر حتى يوفي البحث حقه..

* إن حالة السُّكر في إصلاح الصوفية قائم على تنافر الإسلام وقوانين الحياة بينما حالة الصحو هي الإسلام وموافقته تماماً لقوانين الحياة، والرسول صلى الله عليه وسلم قصد إلى إنشاء أمة صاحية في حالة الصحو، ولهذا تجد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصديق الأكبر والفاروق الأعظم ولا تجد بينهم حافظا الشيرازي..

* هذا بحث طويل تضيق عنه هذه الرسالة القصيرة، وسأفصل هذا إن شاء الله حين تتاح الفرصة، ولكن ذكر «ابن عربي» يذكرني بمسألة أبينها هنا حتى لا يبقى في فكرك لبس.

* ويضيف «محمد إقبال» قائلاً: ـ أنا لا أنكر عظمة الشيخ «يقصد حافظ الشيرازي» بل أعده من كبار فلاسفة المسلمين، ولا ارتياب في إسلامه، وإنما احتج على عقائده، كتقديم الأرواح ووحدة الوجود فآراؤه على صوابها أو غلطها قائمة على تأويل القرآن وإما أن تأويله غلط أو صواب عقلاً ونقلاً فمسألة أخرى، وعندي أن تأويله غير صحيح ومع ذلك أنا اعتبره مسلماً مخلصاً واتبعه في مذهبه.

* ويستطرد محمد إقبال قائلاً: ـ

أصل المسألة أن الصوفية أخطأوا خطأ كبيرا في فهم التوحيد

ووحدة الوجود وليس هذان الاصطلاحان مترادفين كما توهموا، فالأول مفهوم ديني، والثاني فلسفي محض، وليس التوحيد ضد الكثرة كما يظن بعض الصوفية بل هو ضد الشرك، وأما وحدة الوجود فهي ضد الكثرة وكانت نتيجة هذا الخلط أن عُد من الموحدين طائفة ذهبوا إلى وحدة الوجود أو التوحيد في اصطلاح فلسفة أوروبا الحاضرة، على حين أن المسألة التي ذهبوا إليها لا تتعلق بالدين بل بحقيقة نظام العالم..

* أن تعاليم الإسلام واضحة بينه تقول إن ذاتا واحدة تستحق العبادة وهي المولى سبحانه وتعالى وأن كل الكثرة الموجودة في العالم هي مخلوقات خلقها المولى سبحانه وتعالى.

* ليست عقيدة وحدة الوجود من تعاليم القرآن الكريم، فإن القرآن الكريم يُبين المغايرة التامة بين الخالق والمخلوق والعابد والمعبود.

ولعل في رسالة «محمد إقبال» هذه الكثير من الإيضاحات حول فلسفة «محمد إقبال» وفكره الديني.

رسائل محمد إقبال
إلى سراج الدين بال

كان سراج الدين بال أحد الفلاسفة والعلماء الذين انتقضوا أفكار «محمد إقبال» وخاصه فيما ذهب إليه عن التصوف والصوفية وقد كتب محمد إقبال برسالة إلى سراج الدين بال مؤرخه في 10 تموز 1916م قال فيها: ـ

* الحق أن التماس معان باطنية في قانون أمة هو مسخ لهذا القانون، كما يُعلم من سيرة القرامطة، ولا يختار هذه الطريقة إلا أمة في فطرتها الخنوع والمذلة، وفي شعراء العجم جماعة في طباعهم الميل إلى الإباحية، وهذا الميل في إيران من قبل الإسلام، وقد صد الإسلام حينا هذا الميل الطبعي، ثم عاد فظهر حينما وجد فرصة، فوضع للمسلمين أساس أدب يقوم على وحدة الوجود، قد افتتن هؤلاء الشعراء في إبطال شعائر الإسلام بأساليب عجيبة خداعة، وأبانوا عن وجه مذموم في كل أمر ممدوح في الإسلام، وأضرب الجهاد مثلاً، فقد التمس شعراء العجم معنى آخر في هذه الشعيرة

التي يراها الإسلام من ضروريات الحياة.

*** ويضرب محمد إقبال مثالاً برباعية في نفس المعنى تقول**

- يسلك الغازي كل سبيل من أجل الشهادة
- ولا يدري أن شهيد العشق أفضل منه
- كيف يستوي هذا وذاك يوم القيامة
- هذا قتيل وذاك قتيل الحبيب

ويختتم رسالته هذه قائلاً.. هذا جميل في الشعر ولكن خدعة لأبطال الجهاد وإذا نظرت إلى حافظ شيرازي وكل شعراء إيران من هذه الوجهة بانت لك عجائب وغرائب..

الرسالة الثانية

وفي رسالة أخرى لسراج الدين بال نفسه يقول محمد إقبال:

* كل شعر التصوف ظهر في زمان ضعف المسلمين السياسي، وكل أمة يصيبها ضعف كالذي أصاب المسلمين بعد غارات التتار تتبدل أنظارها ويجمل الضعف في أعينها وتركن إلى ترك الدنيا، وفي هذا الترك تخفي الأمم ضعفها، أن تلك الأمة ضعفت عن شريعة القرآن فحاولت أن تبدل القرآن ليلائمها ولم تحاول أن تغير نفسها لتلائم القرآن.

* انظر إلى مسلمي الهند، فقد انتهى الأدب عندهم إلى فن الرثاء في «لكهنئو».

ـ لقد كان هذا طرفًا مما أجاب به «محمد إقبال» على اعتراض المعترضين على فكره وفلسفته، ومن هؤلاء مَنْ قنعوا بقراءة مقدمة المنظومة أو الأبيات التي تضمنتها في نقد «حافظ شيرازي» ولم يقرءوا المنظومة كلها فيتدبروا دعوة «محمد إقبال» أو قراءها ولم يرتقوا إلى الجدال فيها.

«المؤيدون»

* وآخرون من زعماء المسلمين في الهند تلقوا دعوة محمد إقبال بالإكبار والإعجاب، وقدروا حاجة المسلمين إليها، وأثرها في أنفسهم، فأشادوا بفلسفة محمد إقبال وأثنوا عليه بما يستحق.

* ومن هؤلاء الزعيم مولانا «محمد علي» فقد قال بعد أن نشر محمد إقبال أسرار خودي، ورموز «بي خودي»، إن شعر إقبال يحدو المسلمين في هذا العصر إلى النشأة الثانية، لقد شرعت أنا وأخي «شوكت علي» في قراءة أسرار خودي، فرأينا ضرباً من الشعر يفوق ما قال من قبل، وحق إنه بدا لنا أول الأمر فاترا بجانب شعره الأردي الذي يرمي شعر ببعث الحياة في الجماد، لقد رأيت إنه في هذا

الإبداع جلا حقائق إسلامية لم أدركها إلا بعد مشقة وعناء.

* إن الحياة في نظر «محمد إقبال» صحراء جرداء، وإدراك المرء ذاته هو إدراك مقاصد الحياة، لقد بين «محمد إقبال» رسالة الإسلام وسنته الأخلاقية، وأنحى على نظرية القومية والوطنية عند الغربيين التي تحدُ تعاون الناس، وترمي الأمم في الفرقة والاختلاف.

«مولانا أسلم جيراجيوري»

مولانا أسلم جير اجيوري كان من فلاسفة الإسلام في الهند وكان سنيا محافظاً ومن المؤيدين لمحمد إقبال وأفكاره كتب عام 1919م معلقا على ما يواجهه محمد إقبال من اعتراضات: ـ

* ما زال بعض الناس يعترضون على «محمد إقبال» منذ نشر كتابه «أسرار خودي» إذ جعل أفلاطون اليوناني، وحافظا الشيرازي في فصيلة الغنم، وليس حافظ الشيرازي عندهم شاعراً عظيما فحسب، بل هو ولى مقدس، ولو لم يكتب «محمد إقبال» عن حافظ شيرازي ما كتب لكان خيرا له، لأنه عرَّض نفسه لطغي الطاعنين، ولأن المسألة الأصلية التي تنفع الأمة حُجبت في غيار هذا الجدال، كما فعل «بير زادة مظفر أحمد» إذ نظم «راز بيخودي» ليرد على محمد إقبال ما قاله عن أفلاطون وحافظ شيرازي، وأغفل الموضوع الأصلي.

خلاصة أسرار خودي

كان محمد إقبال يشعر بأن أتى العالم بمذهب جديد في الفلسفة. ورأى بدع وإن لم يكن اخترعه اختراعاً، فقد اخترع طرائقه وصوره، وجمع أجزاءه وألف أشتاته، وأدرك صلة هذا المذهب بالإنسان، حياته ومماته، آحاده وجماعاته، وبيَّن صلته بالإسلام خاصة، فأتى بالعجب واستولى على الأمد ومن أجل هذا كان يُعرب عن ثقته بنفسه، وتأثير كلامه، ويذكر إن طلوعه على العالم شمساً جديداً لا تعرف رسومه ولا تألفها سماؤه وأرضه ويتحدث عن نفاذ بصره إلى مكنون الحياة وامتداد عينه إلى أسرار المستقبل فيقول «محمد إقبال في مطلع منظومة أسرار خودي»

ـ قطع الصبح على الليل السفر، فهما دمعي على خد الزهر.

ـ غسل الدمع سبات الدُجى، وصحا العشب بمسرى نفسي .

ـ جرب الغارس قولي موقدا، مصرعا ألقى وسينا حصدا.

ـ إنه حب دموعي زرعا، نسج الروض وأنّاَتي معا.

واستمر «محمد إقبال» في سرد أبياتا تدل على اعتداء إقبال بنفسه وشعوره برسالته.

« محمد إقبال وجلال الدين الرومي »

هناك علاقة وثيقة ما بين فكر محمد إقبال وجلال الدين الرومي وهذه العلاقة أوضحها «محمد إقبال» ذاته في مقدمة منظومته أسرار خودي يقول محمد إقبال: ـ

* إن جلال الدين الرومي هو الذي أيقظه ونبهه ودعاه إلى أن يسلك هذا السبيل، ويقصد هذا القصد، ويشيع في الناس بيانه ويبلغهم رسالته..

* وهو يعترف لجلال الدين الرومي بالإمامة في مواضع كثيرة من كتبه وعندما نظم «محمد إقبال» منظومته الخالدة «جاويد نامة» وقص فيها سفره في الأفلاك السبعة جعل جلال الدين الرومي دليله في هذا السفر يقول محمد إقبال في مقدمة «أسرار خودي»

ـ صير «الرومي» طيني جوهرا، من غباري شاد كونا آخراً.

ـ ذرة تصعد من صحرائها، لتنال الشمس من عليائها.

ـ إنني في لُجة موج سري، لأصيب الدر فيه نيرا.

* ويقول «محمد إقبال» بعد:

ـ أنه بات شاكيا نائحا، فأخذه النصب والنوم فلاح له جلال الدين

الرومي.. ويصف ذلك قائلاً:

ـ قال يا مجنون بين العاشقين، من حميا العشق فأجرع كل حين..

ـ شُق في العين حجاب البصر، وأثر في القلب هول المحشر...

ـ وأجعلن الضحك ينبوع البكاء، وأملأ القلب دموعاً من دماء

ـ أنت كالكمِّ صموت أبكم، أنشرن كالورود ريحا يفغم

ـ صعدن من كل عضو كالجرس، نوحك الصامت في كل نفس

ـ أنت نار فأضئ للعالمين، بلهيب منك أذك الآخرين إلى أن يقول:ـ

ـ جرس الركب أتنبه لأنتم، وأعرف اللذة في نظم النغم وبهذا البيت ينهي «محمد إقبال» كلام جلال الدين الرومي كما حكاه هو «محمد إقبال» ثم يقول «إقبال» مبينا أثر هذا الكلام في نفسه: ـ

ـ صرت نارا في ثيابي تستعر، صرت كالناي هياجا أضمر

ـ ثرت من أوتار نفسي نغما، صغت من حُسن بياني أرما

ـ فرفعت الستر عن سر خودي، مظهر الإعجاز من أمر خودي

* ويمكن القول من خلال هذا العرض الموجز لبعض ما جاء في مقدمة «أسرار خودي» المنثورة ومن جدال إقبال مع مخالفيه إذ محمد إقبال خالف الصوفية في وحدة الوجود وإنكار الذات وسمى

التصوف المتضمن هاتين العقيدتين تصوفا غير إسلامي، ونراه يعترف بإمامه جلال الدين الرومي، ويقر له بالفضل بما أوحى إليه وكرر هذا في مواضع من دواوينه الأخرى ولا يتسع المجال هنا لبيان ما بين جلال الدين الرومي ومحمد إقبال من التشابه الفكري وأسباب إعجاب محمد إقبال بفكر وفلسفة جلال الدين الرومي وإكباره إياه...

«فصول أسرار خودي»

الفصول الرئيسية لديوان أسرار خودي تقع في ثلاثة عشر جزءاً نذكر عناوين محتواها بالألفاظ العربية بالتركيب الفارسي الذي جاءت به **الفصل الأول:.**

أصل نظام العالم من الذاتية، واستمرار أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية.

الفصل الثاني:.

حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها.

الفصل الثالث:.

تستحكم الذاتية بالمحبة والعشق..

الفصل الرابع:.

ضعف الذاتية بالسؤال

الفصل الخامس:.

إذا استحكمت الذاتية بالمحبة والعشق سخَّرت قوى العالم الظاهرة والباطنة.

الفصل السادس:.

حكاية في معنى أن مسألة نفي الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة لتضعف أخلاق الأمم الغالبة من طريق خفية.

الفصل السابع:.

في معنى أن أفلاطون اليوناني الذي أثر كثيرا في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها، ذهب مذهب «الغنم» والاحتراز من خيالاته واجب.

الفصل الثامن:.

حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلامية.

الفصل التاسع:.

تربية الذات لها ثلاث مراحل، المرحلة الأولى الإطاعة، والثانية هي ضبط النفس والثالثة هي النيابة الإلهية، ويتفنن إقبال في البيان في هذا الفصل فيقص قصصا حقيقية أو خيالية لتصوير مذهبه منها.

أ ـ حكاية شاب ذهب إلى الشيخ «على الهجويري» شاكيا جور أعدائه، وقد بيَّن له الشيخ أن العدو له عليه فضل بما يُنبه قواه ويقوي ذاته.

ب ـ حكاية الطائر الذي أنهكه العطش، ووجد ماسة لم يستطع التقاطها ثم وجد قطرة ماء فالتقطها والماسة مثل الذات القوية وقطرة الماء مثل الذات الضعيفة طبقا للحكاية.

ج ـ حكاية الشيخ والبرهمن ومحاورة نهر الجنجا وجبل همالا في معنى أن تسلسل حياة الأمة من الاستمساك بسنتها.

د ـ العديد من الحكايات.

الفصل العاشر:.

في بيان أن مقصد حياة المسلم إعلاء كلمة الله وإن الجهاد وإن كان سببه «إجلال الأرض» فهو حرام في الإسلام.

الفصل الحادي عشر:.

ويتضمن نصيحة «ميرنجات النقشبندي» المسمى «الأب الصحراوي» والتي كتبها لمسلمي الهند.

الفصل الثاني عشر:.

الوقت سيف.

الفصل الثالث عشر:.

دعاء يختتم به محمد إقبال منظومة «أسرار خودي».

«بانوراما فصول أسرار خودي»

الفصل الأول:

الذاتية

* يتضمن الفصل جانبين أساسين هما أصل نظام العالم من الذاتية، وأن استمرار أعيان الوجود موقوف على استحكام الذاتية.

* ويبدأ محمد إقبال المنظومة «منظومة أسرار خودي» بالكلام عن الذاتية وإنها أصل الكون فيقول: ـ

ـ هيكل الكون من آثارها، وكل ما ترى من أسرارها، إنها حينما أيقظت نفسها أظهرت عالم الفكر، مائة عالم خفية في ذاتها، وغيرها مثبت بإثباتها، بذرت في العالم بذر الخصومة، إذ حسبت نفسها غيرها.

* يعني إنها حقيقة واحدة اتخذت ذوات مختلفة فتباينت وتنافست إلى أن يقول: ـ تدمي مائة روضة لأجل وردة، وتثير ألف نوحة لأجل نعمة، وتمنح فلكا واحداً مائة هلال، وتكتب من أجل كلمة واحدة

مائة مقال، وعلة هذا الإسراف وهذه القسوة خلق الجمال المعنوي وتكميله فهو يعني أن التكمل يقتضي فناء الأشكال وإمحاء أطوار، فمائة روضة تنشأ لتكمل فيها وردة.. وهلم جرا وتصوير صعوبة التطوير وعسر التكمل سبق إليه بعض شعراء الصوفية مثل سنائي الغزنوي...

* ثم يقول محمد إقبال: ـ وتراها من أجل عملها، عاملاً ومعمولا، ووسيلة وغاية، تنبعث وتثور، وتطير وتضيء، وتختفي وتحترق، وتقتل وتموت، وتنبت.

ـ وظاهر أن محمد إقبال كان يريد قوة الحياة التي تتجلى في مظاهر مختلفة وتتداولها أحوال شتى، ولكنها الحياة المتعينة المتشخصة في الذوات الكثيرة «جمع ذات ـ ذوات».

* ويضيف محمد إقبال قائلا: ـ

ـ حياة العالم من قوة الذات، فالحياة على قدر ما فيها من هذه القوة، فالفطرة حين تقوى تقوي ذاتها تصير درة، والجبل إذا غفل عن ذاته انقلب سهلا وطغى عليه البحر، ويضرب محمد إقبال في هذا المعنى أمثالاً شعرية عدة، لقد بث محمد إقبال فكرة الذاتية في شعره كله، ذكرها أحيانا مجملة ظاهرة وخفية وصريحة ومكنية،

وأفاض أحياناً في الإبانة عنها، وموالاة وصفها والتمثيل لها، ومن مواضع الإفاضة منظومته «ساقي نامة» من ديوان الذي سماه «بال جبريل ـ جناح جبريل».

* لقد تكلم محمد إقبال في «بال جبريل ـ جناح جبريل» عن الحياة الثائرة والزمان السائر، وعن الأمم والآحاد في هذا الجهاد ثم قال: ـ ما هذا النفس الحي؟ سيف.. ما مسن هذا السيف؟ الذاتية.. ما الذاتية؟ سر الحياة الباطن؟ ما الذاتية؟ يقظة الكائنات، إنها ثملة بالجلوة ومغرمة بالخلوة، إنها بحر في قطرة، إنها ظاهرة فيك وفيَّ، وهي بريئة منى ومنك ـ يعني إنها ليست مقيدة بكون محدود، ماضيها الأزل، وآتيها الأبد، ليس لها ماضي، ولا آت يحد.. تُغير وسائل التحري، وتبدل منظرها بين حين وحين، والصخرة الثقيلة خفيفة في يدها، والجبال رمال من ضربها، والسفر مبدؤها ومنتهاها وهو السر من تقويمها، هي ضياء في القمر، وهي شرار في الحجر، وهي في هذا الكفاح منذ الأزل، وقد صُورت كذلك في صورة الإنسان ويضيف محمد إقبال قائلاً: ـ

إن مستقر الذاتية هو قلبك كما يحوي الفلك إنسان العين، وسم هذه الذاتية العيش الذليل والعزة ماؤها السلسبيل.

الفصل الثاني:

عنوان الفصل: حياة الذاتية بتخليق المقاصد وتوليدها

يقول محمد إقبال:.

إن هذه الذاتية تحيا بخلق المقاصد والجد في المسير إليها، وعلى قدر عظم مقاصدها تعظم، وعلى قدر المشقة التي تحتملها تقوى.

* ونجد أن الأمل في شعر «محمد إقبال» كله في الحياة، والجهاد الدائب هو حافظ هذه الحياة، ولعلنا نلاحظ أن قارئ «محمد إقبال» ليروعه إعظام إقبال الأمل وتصويره إياه وإشادته بالعمل الدائب والجهد المستمر، بل يرى محمد إقبال أن الجهاد في سبيل القصد أعظم لذة في بلوغه، طوبي لمن لا يزال في أثر المحمل، أي لذة في الاضطراب دون وصول، ويقول في هذا الفصل من أسرار خودي.

- إنما يُبقى الحياة المقصد، جرس في ركبها ما نقصد.
- أصلها في أمل مستقر، سرها في السعي منها يضمر.
- أحْي في قلبك هذا الأملا، أو يحل طينك تربا مهملا.
- فإذا عيَّ بتخليق المُنى، هيض سِقطا.

ويميت إلى فقدان الرجا، يطفئ الشعلة فقدان الغذاء

ويرى «محمد إقبال» إن العقل ينشأ من الأمل فيقول: ـ

ـ رأس مال في الحياة الأمل، وكذاك العقل منه ينسل

ـ كل فكر وخيال واعتبار، كل حس وشعور وادكار

ـ هي آلات الحياة الجاهدة، حين تمضي في وغاها صامدة

الفصل الثالث:

الذاتية والعشق

وفيه يستحكم محمد إقبال الذاتية بالمحبة والعشق فيقول: ـ

العشق، عشق الأمل، وعشق المُثل الأعلى، يُشعل الذاتية، ويظهر ما فيها من قوى، وإذا استحكم العشق لم يُحل بين الإنسان وأمله عقبة ولا مشقة ولم تأخذ فيه رغبة ولا رهبة وسخر الإنسان به قوى العالم.

فيقول محمد إقبال في العشق: ـ

ـ زائد بالحب في الذات رواء، وحياة واشتعال وبقاء.

ـ مشعل بالحب منها الجوهر، يتجلى من قواها المضمر.

ـ لا يهاب العشق في السيف المضاء، ليس من ماء وتراب وهواء.

ـ هو في العالم حرب وسلام، وهو ماء لحياة وحسام.

* ولا يتسع المجال هنا لتفصيل القول في العشق عند الصوفية

وعند إقبال وفي الموازنة بين العشق والعقل، وبين الفكر والذكر، وقد صور إقبال هذا صور كثيرة، ولم يمل من ذكره وتكراره، ويجد القارئ في هذه المنظومة «أسرار خودي» وغيرها، فليرجع إلى ترجمة هذه المنظومة، وليرجع أيضا إلى ديوانه رسالة المشرق وضرب الكليم ومقدمتيهما، ولا تخلو فصول هذه المنظومة من حديث في هذا الشأن .

الفصل الرابع

عنوان الفصل الذاتية تضعف بالسؤال

يقول محمد إقبال: من المتعارف عليه أن الثقة بالنفس والاعتداد بها، والاعتماد عليها والاستغناء بها، يقوي الذات، والشك فيها والالتجاء بها إلى الناس وحملها عليهم يضعفها.

الفصل الخامس:

استحكام الذاتية المحبة والعشق

* يبدأ محمد إقبال هذا الفصل بقوله يخاطب المسلم قائلاً:

ـ أيها الجابي من الليث الخراج، صرت كالثعلب خبا باحتياج

ـ ذلك الأعوز أصل العلل، كل أدوائك من ذا المعضل

ـ من كنوز الدهر أخرج ما تريد، وخذ الصهباء من لدن الوجود

* ويضرب مثلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سقطت درته من يده وهو راكب فنزل ليأخذها، وأنف أن يسأل أحد الرجال أن يناوله درته.

* ثم يقول محمد إقبال «لا تبغ رزقك من نعمة غيرك» ولا تستجد ماء ولو من عين الشمس، واستعن بالله وجاهد الأيام ولا ترق ماء وجه الملة البيضاء، طوبي لمن يحتمل الضر من الحرور والظمأ، ولا يسأل الخضر كأساً من ماء الحياة وهو يعني بقوله: اطلب رزقك في أرض الله، لا تستجد أحداً، ولا تعول على غيرك..

الفصل السادس:

عنوان الفصل: نفي الذات من اختراع الأمم المغلوبة

يقول محمد إقبال إن مسألة نفي الذاتية من مخترعات الأقوام المغلوبة لتضعف أخلاق الأمم الغالبة من طريق خفية، ويتحدث إقبال في هذا الفصل عن الأقوام المغلوبة وكيف خدعت الأقوام الغالبة عن نفسها وزينت لها نفي الذات، ويضرب مثلاً قطيعاً من الغنم تسلطت عليه الأسود، تصول عليها وتنال منها ما شاءت كلما شاءت، ففكر كبش في أمر الجماعة فبدا له أن يُضعف في الأسود نزعة التغلب

والصولة، ويصرفها عن الاعتداد بالقوة، فادعى إنه نبي مُرسل إلى الأسود ودعاها إلى الزهد والاستكانة وإنكار الذات، ونهاها عن أكل اللحم، وعلمها أن الجنة للضعفاء، وأن القوة خُسران مبين، وقال «يا ذابح الشاة.. اذبح نفسك واغفل عنها إن تكن عاقلاً، أطبق عينيك وأذنيك وشفتيك ليصعد فكرك فوق الفلك، إن هذه الدنيا مرعى العدم، فإياك أن تركن إلى هذا الوهم».

الفصل السابع:

«مذهب أفلاطون وأثره في الآداب الإسلامية»

يتحدث محمد إقبال في هذا الفصل في معنى أن أفلاطون اليوناني الذي أثر كثيراً في أفكار الأمم الإسلامية وآدابها ذهب مذهب الغنم ، والاحتراز من خيالاته واجب..

* ويُنكر «محمد إقبال» في كثير من أقواله على أفلاطون ومذهبه في عالم المادة وعالم المثال ويبين سوء أثره في الحياة، ويقول إنه يدعو الناس أن يهجروا عالم الحس إلى عالم الخيال وأن يفروا من هذه الحياة.

* ويرى إقبال أن عالم المادة كائن لا ريب فيه، وأن على الإنسان أن يقهره ويسخره، ويجوزه إلى مقاصده، وأن في العمل لتسخير هذا

العالم قوة النفس الإنسانية وارتقاءها.

ـ ويقول محمد إقبال في هذا الفصل من أسرار خودي ما يلي: ـ

ـ راهب الماضين «أفلاط» الحكيم، مذهب الشاء تولى في القديم

ـ طرفه في ظلمة العقول ضل، في خزون الكون قد أعيا وكلَّ

ـ قال: في الموت بدا سر الحياة، وخمود الشمع يُعلى سناه

ولا يتسع المجال هنا للقول في مذهب أفلاطون وتطوره إلى مذهب أفلوطين من بعد، وأثر هذا في المسيحية وفي بعض مذاهب الصوفية.

* وحسبنا أن نقول إن «محمد إقبال» كان يدعو إلى إدراك الذات وتقويتها وإلى العمل الدائب والجهاد الذي لا يفتر، ويرى أن الحياة في العمل والجهاد، والموت في الاستكانة والسكون، ويرى أن عالم المادة كائن لا خيال، وأن عمل الإنسان تسخير هذا العالم، وفي الجهاد لتسخيره قوته وكماله «أي قوة الإنسان وكماله» وهذا المذهب يخالف مذهب أفلاطون والمذاهب التي تفرعت منه في جملتها وتفصيلها، ومذاهب فلاسفة الهند، ويخالف التصوف غير الإسلامي أو التصوف العجمي كما يقول محمد إقبال.

الفصل الثامن:

عنوان الفصل: حقيقة إصلاح الشعر والآداب الإسلامية

سبق القول إن محمد إقبال كتب أبياتا عن حافظ الشيرازي يذم مذهبه ويحذر الناس منه، وإنه حذف هذه الأبيات بعد الطبعة الأولى وأثبت مكانها أبياتا في إصلاح الآداب الإسلامية.

* استهل محمد إقبال هذا الفصل ببيان الأمل وأثره في الحياة، وصور هذا تصويرا بليغا جميلا، كدأبه حين يتحدث عن الأمل في شعره.

ثم قال إننا نأمل ما هو حسن وجميل بل الحسن يخلق الأمل وقال: ـ

ـ كل خير وحسن جميل، هو في صحرائنا خير دليل.

ـ يطبع القلب على أشكاله، خالقا في القلب من آماله.

ـ يخلق الحسن ربيع الأمل، وجهه يُبدي بديع الأمل.

* ثم يقول محمد إقبال أن الشاعر يدرك الجمال ويجلوه للناس ويزيد الجميل جمالاً، ويزيد الفطرة بهجة ويدعو الأمة إلى الجميل ويحدوه بحدوها إليه، فإن لم يكن في الشاعر هذا الإدراك، ولم تشع في شعره الدعوة إلى الخير والجمال والتغني به، وحفز الهمم إليه

ساء أثره في أمته وجراها إلى الهلاك.

* وينتهي في هذا الفصل «محمد إقبال» إلى دعوته دعوة الحياة، والقوة، والأمل، والعمل، والهمة والإقدام..

الفصل التاسع:

عنوان الفصل: مراحل تربية الذات..

يقول «محمد إقبال» في هذا الفصل أن تربية الذات لها ثلاث مراحل، المرحلة الأولى الإطاعة، والثانية هي ضبط النفس، والثالثة هي النيابة الإلهية، ويقول: ـ

* أما الطاعة فيضرب محمد إقبال فيها الجمل مثلاً، ويسير بأثقاله صابرا في غير ضوضاء، ويقول إن الطاعة تجعل في الجبر اختياراً، وإن الإنسان الحر يسخر هذا العالم ولكن يقيد نفسه بالشريعة وأما ضبط النفس فيقول فيه إقبالا مُشبها النفس بالجمل فيقول:

جمل نفسك تربو بالعطف، في إباء وعناد وصلف
فكن الحر وقدها بزمام، من حضيض تبلعن أعلى مقام

* ويقول: ـ إن الذي لا يحكم في نفسه حرى أن يحكم عليه غيره. ويرى أن ضبط النفس لا يكون إلا بنفي الخوف والشهوات، وأن

التوحيد المطلق ينفي عن النفس الاستكانة للمخاوف والمطامع.

ـ وأما المرحلة الثالثة من مراحل تربية الذات وهي النيابة الإلهية فهي مرحلة يكون الإنسان فيها مسيطرا على العالم، مُسخرا قوى الكون، نافخا الحياة في كل شيء، مجددا شباب كل هرم، يهب الحياة بإعجاز العمل، ويجدد مقاييس الأعمال، ويرد العالم إلى الإخاء والسلام، وهذا الإنسان يذكر القارئ بالإنسان الأعلى في تعليم «نيتشه» الفيلسوف الألماني، وبالإنسان الكامل الذي تحدث عنه بعض الصوفية كعبد الكريم الجيلي، وقد ذكره «محمد إقبال» في مواضع كثيرة من شعره بوصف الرجل المؤمن «مرو مؤمن» وهو في العالم أمل وعمل، وإصلاح وعمران وسلام ووئام، لا تعجز عقبة ولا تبعد عليه شقة... وإن الفطرة لتكد فكرها حتى تنظم مثل هذا الإنسان في الحين بعد الحين.

ويمضي «محمد إقبال» فيقص قصة الرجل الذي شكا إلى الشيخ «علي الهجويري» إحاطة الأعداء به وخوفه بأسهم فأجابه الشيخ مبينا فضل العدو عليه بما يثير قواه الكامنة ونصحه بنفي الخوف من نفسه وإحكام همته وعزمه. والشيخ «علي الهجويري» هو أحد كبار الصوفية في الهند له كتاب بالفارسية اسمه كشف المحجوب، ومزاره في لاهور مقصد الزائرين من أرجاء الهند.

* وكذلك يقص «محمد إقبال» قصة «الطائر الظمآن» الذي حاول التقاط ماسة فلم يستطع ووجد قطرة ماء فالتقطها، وهو يضرب الماسة مثلاً للذات الناضجة المحكمة، والقطرة مثلاً للذات النيئة الضعيفة.

* ثم يقص «محمد إقبال» قصة «الماس والفحم» مثلا للذات القوية والذات الضعيفة كذلك.

* ثم ينتقل إلى قصة أخرى فيها شكوى ناسك هندي إلى شيخ مسلم، إنه فكر في أقطار الأرض والسماء ولم يهتد إلى ما يطمئن إليه، ونصح الشيخ إياه بأن ينزل إلى الأرض مفكرا في نفسه وعيشه ويدع آفاق السماء، ويبين له الشيخ أن في التمسك بالسنن ولو كانت سنن الكفار، قوة للأمة واجتماعا.

* ثم يضرب محمد إقبال مثلاً بالمحاورة بين جبل همالة، ونهر جنجا، ويقول على لسان النهر للجبل، ما جدوى الوقار والرفعة وأنت محروم من السير، إنما الحياة سير متصل ووجود الموج تحركه وهو يقول في النهاية أن تسلسل حياة الأمة من الاستمساك بسننها.

* كما يحتوي هذا الفصل على العديد من القصص والحكايات .

موجز الفصل العاشر من منظومة «أسرار خودي»

عنوان الفصل: «مقصد أن حياة المسلم إعلاء كلمة الله والجهاد للاستيلاء على الأرض حرام».

في هذا الفصل يبين «محمد إقبال» أن مقصد المسلم هو إعلاء كلمة الله، أما الجهاد وإن كان سببه احتلال الأرض فهو حرام في الإسلام...

* ولا تظهر الصلة بين هذا الفصل والفصول السابقة لطول الاستطراد، وكثرة الأمثال، فلنذكر القارئ أن هذا الاستطراد وذاك التمثيل جاء به محمد إقبال عقب الكلام عن «النيابة الإلهية» وقد وصف «محمد إقبال» نائب الحق بأنه خليفة الله في الأرض إلى جانب أوصاف أخرى فلما بلغ الغاية من البيان والتصوير رجع يُبين أن هذا السلطان الذي يناله المسلم الحق ينبغي أن يكون لإعلاء الحق لا لفتح البلاد واحتلالها وقهر العباد.

* كما يقول «محمد إقبال» أن الحرب إن أردت بها صلاح الناس فهي خير وإن أردت بها مالا أو جاهاً فهي شر.

* ثم يقص «محمد إقبال» قصة الشيخ «ميانمير» أحد كبار الصوفية إذ زاره أحد سلاطين الهند، وكان السلطان مولعا بالحرب

والفتح وبينما كان السلطان يلتمس من الشيخ أن يدعو له بالنصر، تقدم أحد المريدين إلى الشيخ بدرهم قائلاً: ـ كسبت هذا بكدي، ألتمس من الشيخ أن يقبله مني، فقال الشيخ للمُريد: أعط هذا الدرهم سلطاننا، فهو أفقر الفقراء، وأحرص الناس على الاستجداء، كم أخرب بلادا وقتل عبادا ليشبع، وقد بطش جوعه بالخلق، وأهلك الحرث والنسل.

موجز الفصل الحادي عشر:

عنوان الفصل: ـ نصيحة ميرنجات النقشبندي لمسلمي الهند

* لا يعتبر القارئ في هذا الفصل كلام «ميرنجات» بل من كلام «محمد إقبال» ولعلها كلمة موجزة أثرت عن الشيخ، فبنى عليها «محمد إقبال» هذا الفصل الرائع فكرا وشعراً.

* يقول «محمد إقبال» في هذا الفصل: ـ

إن سر الحياة أن يغوص الإنسان في نفسه ثم يبرز منها كما تغوص القطرة في البحر فتصير لؤلؤة، وأن يجمع الشرار تحت الرماد فيصير شعلة تبهر الأبصار، وإن الحياة أن تجعل نفسك حرماً لنفسك، وتبرأ من الطواف حول غيرك، هذه المعاني كررها «محمد إقبال» كثيرا في شعره، وهو يرى أن تقوى الذات هي الأساس ويرى

أن قوتها بأن تعرف نفسها وتجمع قواها، وقد ضرب مثلاً باختفاء القطرة في البحر، والشرار تحت الرماد، قبل أن تصير القطرة لؤلؤة، والشرارة شعلة.

* ثم يقول «محمد إقبال» طر، وحرر نفسك من جذب التراب، وأحفظها من الهوى إلى الأرض كما ينقل عن جلال الدين الرومي قوله: ـ إن العلم إذا اتصل بالجسم فهو عدو، وإذا اتصل بالروح فهو صديق.

* ويستطرد إلى القصة المعروفة في سيرة جلال الدين الرومي وشمس الدين التبريزي، إذ جادله شمس الدين في جدوى الفلسفة والعلوم التي كان يعلمها لجلال الدين الرومي، واشتد الجدال بينهما، كل يقتد صاحبه، فهاج شمس الدين التبريزي وألقى نظرات على كتب جلال الدين الرومي فإذا هي تحترق هكذا كانت الرواية التي تشبه الأساطير، ولقد تبع جلال الدين الرومي معلمه شمس تبريزي فانقلب صوفيا إماما وكتب كتابه الخالد «المثنوي» وديوانه الرائع الذي نسبه إلى صاحبه ومعلمه «شمس تبريز» وسماه «ديوان شمس تبريز» ثم يمضي محمد إقبال بعد هذه القصة قائلاً: ـ

إنما يكمل علم المسلم بحرقة القلب، وإن معنى الإسلام هو ترك ما يأفل، وأن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما ترك

الآفلين لم تحرقه النار وذلك حين نظر إلى الكواكب والقمر والشمس فوجدها كلها تأفل، فقال «أنا لا أحب الآفلين» وآمن بالله الواحد القهار..

* **ويضيف محمد إقبال قائلاً:.**

اطلب ماء الحياة من بريق الخنجر، ومن فم التنين ماء الكوثر، ولا تبغ حرقة العشق في علم العصر، ولا تطلب لذة الحق من كأس هذا الكافر...

* إن هذا العلم هو الحجاب الأكبر، يصنع الأصنام ويبيعها ويعيدها وهو العلم الغير مبني على الحقائق وهو في قيد الظواهر لم يستطع الخلاص من حدود الحس، وقد تعثر في طريق الحياة ووضع خنجره على حلقه، إن فيه ناراً ولكنها باردة كالشقائق إلى أن يقول: - إن في إهمال المسلم نفسه وتقليده لغيره احتراقه «إن محفل المسلم احتراق بسراج غيره، ومسجده اشتعل من شرار الدير»، وقد أجفل من سواد الكعبة كالظبي، فمزقت جنبه أسهم الصياد، إن كعبتنا عامرة بأصنامنا وأن الكفر ليضحك من أسلامنا، وأن شيخنا قامر بالإسلام في عشق الأصنام واتخذ خيط مسبحته من الزنار، وهو في سفر دائم مع مريديه، وفي غفلة عن حاجات أمته.

* ويضيف «محمد إقبال» قائلاً:.

الوعاظ، والصوفية، عبدوا المناصب، وأضاعوا ملة الملة البيضاء، وأصبح بعضهم واعظا وإلى بيت الصنم ناظرا ومفتيا بالفتوى يتاجر...

موجز الفصل الثاني عشر:- من منظومة أسرار خودي

عنوان الفصل: «الوقت سيف»

* يمضي «محمد إقبال» في هذا الفصل قائلاً: -

إن الفرق بين الحر والعبد هو أن الحر يحتوي على الزمن، والعبد يحتوي عليه الزمن، فالحر يتصرف لا يحد عمله يوم ولا غد، ولا نهار ولا ليل، ولا يعتل بحكم الزمان، وللعبد تعلات من حدود الزمان وأحكام الوقت.

موجز الفصل الثالث عشر:- من منظومة أسرار خودي

العنوان: «دعاء»

ويختتم محمد إقبال هذه المنظومة بدعاء يسأل الله فيه أن يهب المسلمين العشق وحرقة السعي ويشكو من نار تشتعل بين جنبيه، ويضرع إلى الله أن يهبه نجياً يتلقى عنه دعوته، ويدرك أسراره أو يسلبه هذه النار التي تضرم في صدره.

الفصل الثالث

أجمل ما كتب محمد إقبال وترجم إلى العربية من أشعار «شكوى وجواب الشكوى»

محمد إقبال وحديث الروح

ذاع صيت الشاعر والفيلسوف في العالم العربي بدرجة فائقة بعد أن غنت كوكب الشرق السيدة أم كلثوم رائعتها الخالدة «حديث الروح» وهي دمج لقصيدتان كتبهما «محمد إقبال» الأولى بعنوان الشكوى والثانية بعنوان جواب الشكوى... وقد انتشرت القصيدة بعد أن قامت كوكب الشرق أم كلثوم بغناء الكلمات التي كتبها الشاعر الباكستاني محمد إقبال باللغة الأردية ونشرها في ديوانه «صلصة الجرس» ونقلها للعربية شعراً الشاعر الأزهـري الصاوي شعلان، وبرغم من أن كل أشعار «إقبال» كتبها باللغة الفارسية إلا هاتان القصيدتان فقد كتبنا بالأردية، فقصيدة الشكوى كتبها عام 1909م وقصيدة جواب الشكوى كتبت عام 1913م، حيث يحاول الفيلسوف الشاعر محمد إقبال بث شكواه وشجون حول الدور الحضاري للمسلمين في التاريخ ويتألم لحال المسلمين في كل أقطار الأرض ويحاول مواجهة المشكلات الحضارية لذلك كانت الشكوى لله لما وصل إليه حال الأمة الإسلامية، وجواب الشكوى كانت جواب من الله للمسلمين على شكواه.

* ومن العجائب أن أثر نشره قصيدة الشكوى هاج العلماء ضده وأخذوا يهاجمونه ولكن عندما قام بنشر قصيدة جواب الشكوى زالت المشاحنات واللغط الذي دار حول القصيدة فكانت جواب الشكوى إرضاء للعلماء.

* وعندما قامت سيدة الغناء العربي أم كلثوم بغناء القصيدتين ثم تبديل بعض الكلمات حتى تتماشى به اللحن ثم توالت بعد ذلك التعديلات الكبيرة في القصيدتين على خلاف ما كتبه الشاعر محمد إقبال إذ أهملت أم كلثوم مقاطع عديدة وتم إبدال الكلمات منذ بداية الغناء..

البيت الأول من قصيدة جواب الشكوى يقول

كـلام الـروح لـلأرواح يسـرى وتـدركـه الـقـلـوب بـلا عـنـاء

تم استبدال كلمة كلام بكلمة حديث لتصبح

حـديـث الـروح لـلأرواح يسـرى وتـدركـه الـقـلـوب بـلا عـنـاد

وللتعرف على الفارق الكبير بين ما كتبه الشاعر الفيلسوف محمد إقبال وما قامت بغنائه كوكب الشرق السيدة أم كلثوم نعرض للنص الذي قامت أم كلثوم بغنائه ثم نعرض لأجمل ما كتب محمد إقبال باللغة العربية قصيدة شكوى وجواب الشكوى

كلمات أغنية حديث الروح
التي تغنت بها كوكب الشرق

* حديث الروح للأرواح يسرى
وتدركه القلوب بلا عناد
* هتفت به فطار بلا جناح
وشق أنينه صدر الفضاء
ومعدنه ترابي ولكن
جرت في لفظه لغة السماء
* لقد فاضت دموع العشق مني
حديثا كان علوي النداء
فحلق في ربا الأفلاك حتى
أهاج العالم الأعلى بكائي
* تحاورت النجوم وقلن صوت
بقرب العرش موصول الدعاء

وجاوبت المجرة عل طيفا
سرى بين الكواكب في خفاء
وقال البدر هذا قلب شاك
يواصل شدوه عند المساء
ولم يعرف سوى رضوان صوتي
وما أحراه عندي بالوفاء
* شكواي أم نجواي في هذا الدجى
ونجوم ليلى حُسدى أم عودى
أمسيت في الماضي أعيش كأنما
قطع الزمان طريق أمسى عن غدي
والطير صادحة على آفاقها
تبكي الرُبى بأنينها المتجددِ
قد طال تسهيدى وطال نشيدها
ومدامعي كالطل في الغصن الندى
فإلى متى صمتي كأني زهرة
خرساء لم ترزقه براعة منشدِ
* قيثارتي ملأى بأنات الجوى

لابد للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتي خواطر مهجتي
ليبين عنها منطقي ولساني
أنا ما تعديت القناعة والرضا
لكنها هي قصة الأشجان
يشكو لك اللهم قلب لم يعش
إلا لحمد علاك في الأكوان
* مَنْ كان يهتف باسم ذاتك قبلنا
مَنْ كان يدعو الواحد القهارا
عبدوا الكواكب والنجوم جهالة
لم يبلغوا من هديها أنوارا
هل أعلن التوحيد راع قبلنا
وهدى القلوب إليك والأنظارا
ندعو جهارا لا إله سوى الذي
صنع الوجود وقدر الأقدار
* إذا الإيمان ضاع فلا أمان
ولا دنيا لمن لم يحيى دينا

ومَنْ رضى الحياة بغير دين
فقد جعل الفناء لها قرينا
وفي التوحيد للهمم اتحاد
ولن تبنوا العُلا متفرقينا
ألم يُبعث لأمتكم نبي
يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعاً
منار للأخوة والسلام
وفوق كل رحمن رحيم
إله واحد رب الأنام.

أجمل ما كتب محمد إقبال

قصيدة «شكوي» تضم 120 بيتا وقصيدة «جواب الشكوي» أطول فهي تقع في 140 بيتا ترجمها محمد حسن الأعظمي إلى العربية نثرا ضمن قصائد أخرى وقدمها الشاعر المصري الصاوي شعلان والذي أعد كتابتها.

قصيدة الشكوى

شَكوايَ أمْ نجوايَ في هذا الدُجى ... ونجومُ ليلِي حُسَّدي أمْ عُوَّدي

أمسيتُ في الماضي أعيش كأنني ... قطعَ الزمانُ طريق أمسي عن غَدي

والطيرُ صادحةٌ على أفنانها ... تُبكي الرُبى بأنينها المتجددِ

قد طال تسهيدي وطال نشيدها ... ومدامعي كالطل في الغصن النَّدي

فإلى متى صمتي كأني زهرةٌ ... خرساءُ لم تُرزق براعةَ مُنشدِ

قيثارتي مُلئت بأنَّات الجَوى ... لا بدَّ للمكبوت من فيضانِ

صَعدتْ إلى شفتِي بلابلُ مُهجتي ... ليَبين عنها منطقي ولساني

أنا ما تعديتُ القناعةَ والرِّضا ... لكنَّما هي قصة الأشجانِ

أشكو وفي فميَ التراب وإنما ... أشكو مُصاب الدِّين للديَّانِ

يشكو لك اللهمَّ قلب لم يعِشْ ... إلاّ لحمد عُلاك في الأكوانِ

قد كان هذا الكونُ قبل وجودنا ... رَوضًا وأزهارًا بغير شميمِ

والورد في الأكمام مجهولُ الشَّذا ... لا يُرتجى وردٌ بغير نسيمِ

بل كانتِ الأيام قبل وجودنا ... ليلاً لظالمها وللمظلومِ

لما أطل محمدٌ زكت الرُّبى ... واخضرَّ في البستان كلُّ هشيمِ

وأذاعت الفردوسُ مكنونَ الشذا ... فإذا الورى في نضرةٍ ونعيمِ

من قام يهتف باسم ذاتك قبلَنا ... مَنْ كان يدعو الواحد القهَّارا

عبدوا تماثيلَ الصخور وقدَّسوا ... مِن دونك الأحجار والأشجارا

عبدوا الكواكب والنجوم جهالةً ... لم يبلغوا من هَديها أنوارا

هل أعلن التوحيدَ داعٍ قبلَنا ... وهدى الشعوب إليك والأنظارا

كنَّا نُقدِّم للسيوف صدورَنا ... لم نخش يوماً غاشمًا جبَّارا

قد كان في اليونان فلسفةٌ وفي الرُّ ... ومانِ مدرسةٌ وكان المُلك في ساسانِ

لم تُغنِ عنهمْ قوة أو ثروةٌ ... في المال أو في العلم والعرفانِ

وبِـكـلِّ أرض سـامـريٌّ مـاكـرٌ ... يكفي اليهودَ مؤونةَ الشيطانِ

والحكمة الأولى جرَت وثنيَّةً ... في الصين أو في الهند أو تُورانِ

نحن الذين بِنورِ وحيكَ أوضحوا ... نهجَ الهدى ومعالم الإيمانِ

من ذا الذي رفعَ السيوف ليرفع اسْ ... مكَ فوق هامات النجوم منارا

كنا جبالاً في الجبال وربما ... سِرنا على موج البحار بحارا

بمعابد الإفرنج كان أذانُنا ... قبلَ الكتائب يفتح الأمصارا

لم تنس إفْرِقْيا ولا صحراؤُها ... سجَداتِنا والأرضُ تقذف نارا

وكأنَّ ظلَّ السيف ظل حديقةٍ ... خضراءَ تنبت حولنا الأزهارا

لم نخش طاغوتًا يحاربنا ولوْ ... نصبَ المنايا حولنا أسْوارا

ندعو جهارًا لا إله سوى الذي ... صنع الوجود وقدَّر الأقدارا

ورؤوسنا يا ربِّ فوق أكفِّنا ... نرجو ثوابك مغنمًا وجِوارا

كنا نرى الأصنامَ من ذهبٍ فنهْ ... دمها ونهدم فوقها الكُفَّارا

لو كان غيرَ المسلمين لحازها ... كنزًا وصاغ الحِلْيَ والدينارا

كم زُلزل الصخر الأشمُّ فما وَهى ... من بأسنا عزم ولا إيمانُ

لو أن آسادَ العرين تفزَّعتْ ... لم يلقَ غير ثباتنا الميْدانُ

وكأنَّ نيران المدافع في صدُو ... رِ المؤمنين الرَّوْح والريحانُ

توحيدُك الأعلى جعلنا نقشَهُ ... نورًا تضيء بصُبحه الأزمانُ

فغدتْ صُدورُ المؤمنين مصاحفًا ... في الكون مسطورا بها القرآنُ

مَن غيرُنا هدَم التماثيلَ التي ... كانت تقدسها جهالاتُ الورَى

حتى هوتْ صُورُ المعابد سُجَّدًا ... لجلال من خلقَ الوجودَ وصوَّرا

ومَنِ الأُلى حملوا بعزمٍ أكُفّهمْ ... بابَ المدينة يومَ غزوة خيْبرا

أمّن رمى نار المجوس فأُطفئَتْ ... وأبان وجه الحق أبلجَ نيّرا

ومَن الذي بذَل الحياة رخيصةً ... ورأى رضاك أعز شيْءٍ فاشترى

نحْنُ الذين استيقظت بآذانهمْ ... دُنيا الخليقة من تهاويل الكَرَى

نحن الذين إذا دُعُوا لصلاتهمْ ... والحرب تسقي الأرض جامًا أحمرا

جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبّروا ... في مَسمع الرُّوح الأمين فكبّرا

«محمودُ» مِثلُ «إيازَ» قام كِلاهما ... لك بالخشوع مُصليًا مُستغفرا

العبد والمولى على قدم التُّقى ... سجدَا الوجهك خاشعيْن على الثَّرى

بلغت نهايةَ كُلِّ أرضٍ خيلُنا ... وكأن أبحُرَها رمالُ البِيدِ

في محفل الأكوان كان هلالُنا ... بالنصر أوْضحَ من هلال العيدِ

في كل مَوقعةٍ رفَعنا رايةً ... للمجد تُعلن آيةَ التوحيدِ

أُممُ البرايا لم تكن مِن قبلنا ... إلا عبيدًا في إسارِ عَبيدِ

بلغتْ بنا الأجيال حُرّيّاتها ... من بعد أصفادٍ وذل قُيودِ

رُحماك ربي هل بغير جباهنا ... عُرف السجودُ بِبيتك المعمورِ

كانت شغاف قلوبنا لك مُصحفًا ... يحوي جلالَ كتابك المسطورِ

إن لم يكن هذا وفاءً صادقًا ... فالخَلْقُ في الدنيا بغيرِ شعورِ

مَلأ الشعوبَ جُناتُها وعُصاتُها ... مِن مُلحدٍ عاتٍ ومن مغرورِ

فإذا السَّحاب جرى سَقاهم غيثَه ... واختصَّنا بصواعق التدميرِ

قد هبَّتِ الأصنامُ مِن بعد البِلى ... واستيقظت مِن قبْل نفخ الصُّورِ

والكعبةُ العليا توارى أهلُها ... فكأنهمْ مَوتى لغير نُشورِ

وقوافلُ الصحراء ضلَّ حُداتها ... وغدتْ منازلها ظلالَ قبورِ

أنا ما حسدتُ الكافرين وقدْ غَدَوْا ... في أنعُمٍ ومواكبٍ وقصورِ

بلْ محنتي ألا أرى في أُمّتي ... عَملاً تُقدِّمهُ صَداقَ الحُورِ

لكَ في البرِية حكمةٌ ومشيئةٌ ... أعيتْ مذاهبُها أُولي الألبابِ

إن شئتَ أجريْت الصحارى أنهُرًا ... أو شئت فالأنهارُ موجُ سرابِ

ماذا دهَى الإسلامَ في أبنائهِ ... حتى انطوَوْا في محنةٍ وعذابِ

فثراؤهم فقرٌ ودولةُ مجدِهمْ ... في الأرض نهبُ ثعالبٍ وذئابِ

عاقَبْتنا عدلاً فهبْ لعدوِّنا ... عن ذنبه في الدهر يومَ عقابِ

عاشوا بثروتنا وعِشنا دونهمْ ... للموت بين الذُّل والإملاقِ

الدين يحيَا في سعادة أهلهِ ... والكأس لا تَبقى بغير الساقي

أين الذين بنارِ حُبكَ أرسلُوا الْ ... أنْوار بين محافل العُشاقِ

سكبوا اللياليَ في أنين دُموعهمْ ... وتوضَّؤوا بمدامع الأشواقِ

والشمسُ كانت من ضياء وجوههمْ ... تُهدي الصباح طلائع الإشراقِ

كيف انطوت أيامُهمْ وهُمُ الأُلَى ... نشروا الهُدى وعلَوْا مكان الفرقدِ

هجروا الديار فأين أزمعَ ركبُهمْ ... مَن يهتدي للقوم أو من يقتدِي

يَا قلبُ حسبُك لن تُلِمَّ بطيفهمْ ... إلا على مِصباح وجهِ محمدِ

فازوا من الدنيا بمجدٍ خالدٍ ... ولهمْ خلودُ الفوز يومَ الموعدِ

يا ربِّ ألهمنا الرشاد فما لنا ... في الكون غيرُك من وليٍّ مُرشدِ

ما زال قيسٌ والغرام كعهدهِ ... وربوعُ ليلى في ربيع جمالها

وهضاب نجدٍ في مراعيها المَها ... وظباؤها الخفِراتُ مِلءُ جبالها

والعشق فياضٌ وأمةُ أحمدٍ ... يتحفّزُ التاريخ لاستقبالها

لوْ حاولتْ فوق السماء مكانةً ... رفّتْ على شمس الضحى بهلالها

ما بالها تَلقى الجُدود عواثرًا ... وتصدُّها الأيام عن آمالها

هجْرُالحبيبِ رمى الأحبةَ بالنَّوى ... وأصابهم بتصرُّم الآمالِ

لم يبقَ في الأرواح غيرُ بقيَّةٍ ... رُحماك يا مِرآةَ كلِّ جمالِ

لو قد مَللنا العشقَ كان سبيلُنا ... أن نستكينَ إلى هوًى وضَلالِ

أو نصنعَ الأصنام ثم نبيعَها ... حاشا المُوحِّدَ أن يَذِلَّ لمالِ

أيامُ سلمانٍ بنا موصولةٌ ... وتُقَى أُويْسٍ في أذانِ بِلالِ

يا طيبَ عهدٍ كنتَ فيه منارَنا ... فبعثتَ نور الحق مِن فَارانِ

وأسرْتَ فيه العاشقين بلمْحةٍ ... وسقيتَهُم راحاً بغير دِنانِ

أحرقتَ فيهِ قلوبهمْ بتوقُّد ال ... إيمان لا بتلهُّب النِّيرانِ

لم نَبق نحن ولا القلوب كأنها ... لم تحْظَ من نار الهوى بدُخانِ

إن لم يُنِر وجهُ الحبيب بِوَصله ... فمكان حُزن القلب كلُّ مكانِ

يا فرحةَ الأيام حين نرى بها ... روضَ التجلّي وارفَ الأغصانِ

ويعود مَحفلنا بحُسنكَ مُسفرًا ... كالصبح في إشراقهِ الفيْنانِ

قد هاج حُزني أن أرى أعداءَنا ... بين الطِّلا والظل والألحانِ

ونعالج الأنفاسَ نحنُ ونصطلِي ... في الفقر حين القومُ في بستانِ

أشرِقْ بنورِكَ وابعثِ البرقَ القَدي ... مَ بِومْضةٍ لفَراشكَ الظمآنِ

أشواقُنا نحو الحجاز تطلعتْ ... كحنين مغتربٍ إلى الأوطانِ

إن الطيور وإن قصصتَ جناحَها ... تسمو بفطرتها إلى الطَّيَرانِ

قيثارتي مكبوتةٌ ونشيدُها ... قد ملّ من صمتٍ ومن كِتمانِ

واللحنُ في الأوتار يرجو عازفًا ... ليبوحَ من أسراره بمعانِ

والطُّورُ يرتقب التجلِّيَ صارخًا ... بهوى المَشُوق ولهفة الحيْرانِ

أكبادُنا احترقت بأنَّات الجَوى ... ودماؤنا نهر الدموع القاني

والعطرُفاض من الخمائل والرُّبَى ... وكأنه شَكْوى بغير لِسانِ

أوَليسَ من هَول القيامة أن يكو ... نَ الزهرُ نمَّامًا على البُستانِ

النمل لا يخشى سُليمانًا إذا ... حرستْ قُراه عنايةُ الرَّحمنِ

أرشدْ براهمةَ الهُنود ليرفعُوا الْ ... إسلام فوق هياكلِ الأوثانِ

ما بالُ أغصانِ الصنوبر قد نأتْ ... عنها قَماريها بكل مكانِ

وتعرتِ الأشجارُ مِن حُلل الرُّبى ... وطيورها فرَّت إلى الوديانِ

يـا ربِّ إلا بُـلـبـلاً لـم ينـتـظرْ ... وَحـيَ الـربـيـع ولا صَبـا نيسـانِ
ألـحـانُـه بـحـرٌ جَـرى مـتلاطمًا ... فكأنه الـحـاكي عـن الـطـوفـانِ
يـا ليت قـومـي يسمعون شِكايةً ... هي في ضميري صرخةُ الوِجدانِ
إن الـجـواهـر حـيّـرت مِـرآة ه ... ذا القلبِ فهْوَ على شفا البُركانِ
أسمِعهُمو يا ربِّ ما ألهمتَني ... وأعـدْ إلـيـهـمْ يـقْـظـةَ الإيـمـانِ
وأذقـهـمُ الـخـمـرَ الـقـديـمةَ إنها ... عـينُ اليقين وكوثـرُ الـرّضـوانِ
أنا أعجميُ الـدّنِ لكنْ خمرتِي ... صُنعُ الحِجاز وكرْمِها الفَيْنانِ
إن كان لي نغَمُ الهُنودِ ولحنُهمْ ... لـكـنَّ هـذا الـصـوتَ مِـن عَـدنـانِ

قصيدة جواب الشكوى

كـلامُ الـرُّوح لـلأرواح يـسْـري ... وتُـدركـهُ الـقـلـوبُ بـلا عـنـاءِ
هـتـفـتُ بـه فـطـارَ بـلا جـنـاحٍ ... وشـقَّ أنـيـنُـه صـدرَ الـفـضـاءِ
ومـعـدنُـه تـرابـيٌ ولـكـنْ ... جـرتْ في لفظه لغةُ السماءِ
لقد فاضت دموعُ العشقِ منّي ... حـديـثـا كـان عُـلـويَّ الـنِّـداءِ
فحلَّق في رُبى الأفلاك حتَّى ... أهـاجَ الـعـالـمَ الأعـلـى بُكائي
تَـحـاورت الـنـجـومُ وقـلـن صوتٌ ... بِقرب العرش موصولُ الدعاءِ

وَجاوبت المجرَّةُ علَّ طيفًا ... سَرى بين الكواكب في خفاءِ

وقال البدرُ هذا قلب شاكٍ ... يواصل شدوَه عند المساءِ

ولم يعرف سوى رِضوانَ صوْتِي ... وما أحراهُ عندي بالوفاءِ

ألم أك قبلُ في جنات عدنٍ ... فأخرجني إلى حينٍ قَضائي

وقيل هو ابن آدمَ في غُرور ... تجاوز قدره دونَ ارْعواءِ

لقد سجدتْ ملائكةٌ كرامٌ ... لهذا الخلق من طينٍ وماءِ

يظنُّ العلم في كيفٍ وكمٍّ ... وسرُّ العجز عنه في انطواءِ

ومِلءُ كؤوسه دمعٌ وشكوَى ... وفي أنغامه صوتُ الرجاءِ

فيا هذا لقد أبلغتَ شيئًا ... وإن أكثرت فيه من المِراءِ

عطايانا سحائبُ مرسلاتٌ ... ولكنْ ما وجدنا السَّائلينا

وكلُّ طريقنا نَوْرٌ ونُورٌ ... ولكن ما رأينا السَّالكينا

ولم نَجدِ الجواهرَ قابلاتٍ ... ضياءَ الوحي والنورَ المبينا

وكان ترابُ آدمَ غيرَ هذا ... وإن يكُ أصلُه ماءً وطينا

ولوْ صدقوا وما في الأرض نهرٌ ... لأجريْنا السماء لهم عُيونا

وأخضعنا لمُلكهمُ الثُّريَّا ... وشيَّدنا النجوم لهم حُصونا

ولكنْ ألحدوا في خير دينٍ ... بنى في الشمس مُلك الأوَّلينا

تراثُ محمَّدٍ قد أهملوه ... فعاشوا في الخلائق مُهمَلينا

تولَّى هادِمو الأصنام قِدمًا ... فعادَ لها أولئك يَصنعونا

أباهم كان إبراهيمُ لكنْ ... أرى أمثال آزرَ في البنينا

وفي أسلافكمْ كانت مَزايا ... بكل فَمٍ لذاكرها نشيدُ

تضُوعُ شقائقُ الصحراءِ عِطْرًا ... بريَّاها وتبتسمُ الورودُ

فهلْ بقيَتْ محاسنُهمْ لدَيكُمْ ... فيجمُلُ في دلالكم الصُّدودُ

لقد هامُوا بخالقهم فَناءً ... فلم يُكتب لغيرهِمُ الخلودُ

وكوثرُ أحمدٍ مِنكم قريبٌ ... ولكنْ شوقُكم عنه بعيدُ

وكمْ لاح الصَّباحُ سَنًا وبُشرى ... وأذَّنتِ القَماري والطُّيورُ

وكبَّرت الخمائل في رُباها ... مُصلِّيةً فجاوبها الغديرُ

ونومُ صباحكم أبدًا ثقيلٌ ... كأنَّ الصبح لم يُدركه نورُ

وأضحى الصَّومُ في رمضان قيدًا ... فليس لكم به عزمٌ صبورُ

تمدُّنُ عصرُكم جمعَ المزايا ... وليس بغائبٍ إلا الضميرُ

لقد ذهب الوفاءُ فلا وفاءٌ ... وكيف ينالُ عهدي الظَّالمينا

إذا الإيـمـانُ ضـاعَ فـلا أمـانٌ ... ولا دُنْـيـا لـمـن لـم يـحـيـي دِيـنـا

ومَـنْ رَضِـيَ الـحـيـاةَ بِغَـيـر ديـنٍ ... فـقـد جـعـل الـفَـنـاء لـهـا قَـريـنـا

وفـي الـتـوحـيـد لِـلـهِـمَـم اِتّـحـادٌ ... ولـنْ تَـبـنـوا الـعُـلا مُـتـفـرّقـيـنـا

تـسـانـدتِ الـكـواكـبُ فـاسـتـقـرَّتْ ... ولـولا الـجـاذبِـيَّـةُ مـا بَـقِـيـنـا

غـدَوْتُـمُ فِـي الـدِّيَـارِ بِـلا دِيَـارٍ ... وَأَنْـتـمْ كَـالـطُّـيُـورِ بِـلا وُكُـورِ

وَكُـلُّ صَـوَاعِـقِ الـدُّنـيَـا سِـهَـامٌ ... لِـبَـيْـدَرِكُـمْ وَأَنْـتُـمْ فِـي غُـرُورِ

أهَـذَا الـفَـقْـرُ فِـي عِـلْـمٍ وَمَـالٍ ... وَأَنْـتُـمْ فِي الْقَطِيعَةِ وَالنُّفُورِ

وَبَـيـعُ مَـقَـابِـرِ الأجْـدَادِ أضْحَى ... لَـدَى الأحْـفـادِ مَـدْعَـاةَ الـظُّـهُـورِ

سَيُعْجَبُ تَاجِرُو الأصْنَامِ قِدْمًا ... إذَا سَـمـعـوا بـتُـجَّـارِ الـقُـبـورِ

أتَشْكُو أنْ تَـرَى الأقْـوَامَ فَـازُوا ... بِـمَـجْـدٍ لايَـــرَاهُ الـنَّـائِـمُـونَـا

مَـشَـوْا بِـهُـدَى أوَائِـلِـكُـمْ وَجَـدُّوا ... وَضَـيَّـعْـتُـمْ تُـــرَاثَ الأوَّلِـيـنَـا

أيُـحْـرِمُ عَـامِـلٌ وَرَدَ الْـمَـعَـالِـي ... ويَـسْـعَـدُ بِـالـرُّقِـيِّ الْـخَـامِـلُـونَـا

أَلَـيْـسَ مِـنَ الْـعَـدَالَـة أنَّ أرْضِـي ... يَـكُـونُ حَـصَـادُهَـا لـلـزَّارِعِـيـنَـا

تَـجَـلّـي الـنُّـورِ فَـوْقَ الـطُّـورِ بَـاقٍ ... فَـهَـلْ بَـقِـيَ الـكَـلِـيـمُ بِـطُـورِ سِـيـنَـا

أَلَـمْ يُـبْـعَـثْ لأُمَّـتِـكُـمْ نَـبِـيٌّ ... يُـوَحِّـدُكُـمْ عَـلَـى نَـهْـجِ الـوِئَـامِ

وَمُصْحَفُكُمْ وَقِبْلَتُكُمْ جَمِيعًا ... مَنَارٌ لِلأُخُوَّةِ وَالسَّلامِ

وَفَوْقَ الكُلِّ رَحْمنٌ رَحِيمٌ ... إلهٌ وَاحِدٌ رَبُّ الأَنَامِ

فَمَا لِنَهارِ أُلْفَتِكُمْ تَوَلَّى ... وَأمْسَيْتُم حَيَارَى فِي الظَّلامِ

وَحُسْنُ اللُّؤْلُؤ الْمَكْنُونِ رَهْنٌ ... بِصَوْغِ الْعِقْدِ فِي حُسْنِ النِّظَامِ

وكيف تغيَّرتْ بِكمُ اللَّيالي ... وكيف تفرَّقتْ بكمُ الأماني

تركتمْ دينَ أحمدَ ثم عُدْتُم ... ضحايا لِلْهوى أو للهوانِ

رُقيُّ الشَّعبِ قد أضحى لديكُمْ ... تُقرّرُه صلاحيةُ الزمانِ

وكيف تُقاسُ أوهامٌ ولغوٌ ... بحكمة مُنزلِ السَّبع المثاني

أرى نارًا قد انقلبتْ رمادًا ... سوى ظلٍّ مريضٍ من دُخانِ

أرى الفقراءَ عُبَّادًا تُقاةً ... قياما في المساجد راكعينا

هُمُ الأبرارُ في صَومٍ وفطرٍ ... وبالأسحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونا

وليس لكم سِوى الفقراءِ سترٌ ... يواري عن عيوبكمُ العُيُونا

أضلَّت أغنياءَكمُ الملاهي ... فهم في ريبهم يتردَّدونا

وأهلُ الفقر ما زالوا كنوزًا ... لدينِ الله ربِّ العالمينا

أرى التفكيرَ أدركهُ خُمولٌ ... ولم تبقَ العزائمُ في اشتعالِ

وأصبحَ وَعْظُكم من غير سِحْرٍ ... ولا نـورٌ يُـطِـلُ مـن المـقـالِ
وعـنـد الـنَّـاس فلسلفةٌ وفكرٌ ... ولـكـنْ أيـن تـلـقـيـنُ الـغـزالـي
وجـلـجـلَـةُ الأذان بِـكـلِّ أرضٍ ... ولـكـن أيـن صـوتٌ مـن بِـلالِ
مـنـائـرُكم عـلـتْ فـي كـلِّ حـيٍّ ... ومسـجـدُكم مـن الـعُـبـاَّد خالي
فـأيـنَ أئـمـةٌ وجـنـودُ صـدقٍ ... تـهـابُ شَـبَـاةَ عَـزمـهـمُ الـحِـرابُ
إذا صنعوا فصُنعهمُ المعالي ... وإنْ قـالـوا فـقـولُـهـم الـصَّـوابُ
مـــرادُهـــمُ الإلـــهُ فـلا رِيـــاءٌ ... ونـهـجـهـمُ الـيـقـين فـلا ارتـيـابُ
لأمّـتـهـمْ ولـلأوطـانِ عـاشـوا ... فـليس لـهـم إلـى الـدُّنـيـا طِلابُ
كمثل الكأس تُبْصِرُها دِهاقًا ... ولـيس لأجـلـهـا صُـنِـع الـشَّـرابُ
مِنَ الْمُتَقَدِّمينَ إِلَى الْمَعالِي ... عَلَى نَهجِ الْهِدَايَةِ وَالصَّوَابِ
وَمِـنْ جَبَهَاتِهِم أنْـوَارُ بَيْتي ... وَفِـي أخْلاقِـهِـمْ يُتْلَى كِتَابِي
أَمَـا كَـانُـوا جُـدُودَكُـمُ الأوَالِـي ... بُنَاةَ الْمَجْدِ وَالْفَنِّ الْعُجَابِ
وَلَيْسَ لَكُمْ مِنَ الْمَاضِي تُرَاثٌ ... سِوَى شَكْوَى اللُّغوب وَالاكْتِئَابِ
وَمَنْ يَكُ يَوْمُهُ فِي الْعَيْشِ يَأسًا ... فَمَا غَدُهُ سِوَى يَوْمِ الْعَذَابِ
جـهـادُ الـمـؤمـنـيـنَ لـهـمْ حـيـاةٌ ... ألا إنَّ الـحـيـاةَ هـيَ الـجـهـادُ

عقائدُهم سواعدُ ناطقاتٌ ... وبالأعمال يَثبُتُ الاعتقادُ

وخوفُ الموتِ للأحياء قبرٌ ... وخوفُ اللهِ للأحرار زادُ

أرى ميراثهم أضحى لدَيْكُمْ ... مُضاعًا حيثُ قد ضاعَ الرَّشادُ

وليس لوارثٍ في الخير حظٌّ ... إذا لم يحفظِ الإرثَ اتِّحادُ

لأيِّ مآثرِ القوم انْتَسَبْتُمْ ... لتكتسبوا فخارَ المُسلمينا

فأين مَقامُ ذي النُّورَيْن مِنكمْ ... ودولةُ عِزِّه دُنيا ودِينَا

وفقرُ عليِّ الأوابِ هلاّ ... رَبِحتم فيه كنزَ الفاتحينا

أقمتمْ في الذُّنوب وفي الخَطايا ... وتغتابون حتَّى الصَّالحينا

وهُمْ ستروا عيوب الخلق فضلاً ... وإن كانوا أبرَّ المُتَّقينا

أريكةُ قيصَرٍ وسَريرُ كِسْرى ... قد احْتَمَيا بملكهمُ العَمِيمِ

وأنتم تطمحون إلى الثُّريَّا ... بلا عزمٍ ولا قلبٍ سليمِ

تُضيعون الإخاء وهم أقامُوا ... صُروحَ إخائهمْ فوق النُّجومِ

طلبتُمْ زهرةَ الدنيا وعُدْتُمْ ... بلا زهرٍ يضوعُ ولا شميمِ

وكان لديهمُ البستان محضًا ... وهُمْ أصحابُ جنات النَّعيمِ

يُعيدُ الكونُ قصّتهم حديثًا ... ويُنْشئُ منْ حديثهمُ الفُنونا

فكمْ نَـزَحُـوا عـنِ الأوْكـارِ شَـوْقًـا ... إلـى التَّحْلِـيقِ فَـوْق العالمَين

ا ويـأسُ شبابكم أدْمـى خُطاهمْ ... فظنُّوا فيه بـالـدِّيـن الظُّنونا

هِـي المـدنَّـيـةُ الـحـمقـاءُ ألقتْ ... بهمْ حـولَ المـذاهـب حَائـرينـا

لقد صنعتْ لهمْ صنمَ الملاهي ... لتحجبَ عنهمُ الحَـرَمَ الأمينَا

لقد سئمَ الهوى في البِيدِ قَيْسٌ ... ومـلَّ مـن الشَّـكـايـة والـعـذابِ

يـحـاولُ أن يُـبـاح الـعِشْـقُ حتى ... يـرى لـيـلاهُ وهْـيَ بـلا حـجـابِ

يـريـدُ سفـور وجـهِ الحُسن لمّا ... رأى وجــهَ الـغـرام بـلا نـقـابِ

فـهـذا الـعـهـد أحـرقَ كـلّ غـرسٍ ... مِـن المـاضـي وأغـلـقَ كـلَّ بـابِ

لـقـد أفـنـت صـواعـقُـه المـغـانـي ... وعـاثتْ في الجبال وفي الهضابِ

هي النَّارُ الجديدةُ ليس يُلقى ... لها حطبٌ سوى المَجْدِ القديمِ

خُـذوا إيـمـانَ إبـراهـيـمَ تَـنْـبُـتْ ... لكمْ في النَّـار رَوضـاتُ النَّعيمِ

ويـذكُـو مـن دمِ الـشـهـداء وَرْدٌ ... سَـنِـيُّ الـعِـطـر قُـدسـيُّ النَّـسـيمِ

ويـلـمـعُ فـي سـمـاء الـكـون لـونٌ ... مـن الـعُـنَّـاب مـخـضـوبُ الأديـمِ

فـلا تـفـزعْ إذا المَـرْجَـانُ أضْـحى ... عُـقـودًا لـلـبـراعـمِ والـكُـرومِ

فـكـم زالـتْ ريـاضٌ مـن رُبـاهـا ... وكـم بـادت نـخـيـلٌ فـي الـبـوادي

ولـكـنْ نـخـلـةُ الإســلام تـنـمُـو ... عـلـى مـرِّ الـعـواصـف والـعـوادي
ومجدك في حمى الإسلام باقٍ ... بـقـاءَ الـشـمـس والـسـبـع الـشـدادِ
وإنــك يـوسـفٌ فـي أي مِـصـرٍ ... يــرى كـنـعـانَـه كــلّ الـبـلادِ
تسيرُ بكَ القوافلُ مُسرِعاتٍ ... بـلا جـرسٍ ولا تـرجـيـعِ حـادي
ضـيـاؤُك مـشـرقٌ فـي كـل أرضٍ ... لأنـكَ غـيـرُ مـحـدودِ الـمـكـانِ
بَـغـتْ أمــمُ الـتَّـتـار فـأدركـتْـهـا ... مــن الإيــمــان عـاقـبـةُ الأ
مَانِ وأصبح عابدُو الأصنام قِدمًا ... حـمـاةَ الـحِـجـر والـرُّكـن اليَمانِي
فـلا تـجـزع فـهـذا الـعـصـرُ لـيـلٌ ... وأنــت الـنـجـم يُـشـرقُ كـلّ آنِ
ولا تخشَ العواصف فيهِ وانهضْ ... بشُعلتك المضيئة في الزمانِ
أعِـد مِـن مَـشـرق الـتـوحـيـد نُـورًا ... يَـتـمُّ بـه اتـحـادُ الـعـالَـمـيـنـا
وأنت العِطرُ في روض المعالي ... فـكـيـف تـعـيـش مـحـتـبِـسًـا دفـيـنـا
وأنــت نـسـيـمُـه فـاحـمـلْ شـذاهُ ... ولا تَـحـمـل غُـبـار الـخـامـلـيـنـا
وأَرسِـل شُـعـلـةَ الإيـمـانِ شَـمـسًـا ... وصُـغْ مـن ذَرَّةٍ جـبَـلاً حـصـيـنـا
وكُـنْ فـي قـمـة الـطـوفـانِ مَـوْجـا ... ومُـزنـا يُـمـطـر الـغـيـثَ الـهـتـونـا
فـبـاسـم مـحـمـدٍ شـمـسِ الـبـرايـا ... أُقـيـمـت خـيـمـةُ الـفـلَـكِ الـمُـنـيـرِ

تَلألأَ في الرياضِ وفي الصَّحارى ... وفوق الموجِ والسَّيلِ المُغيرِ
ونبضُ الكونِ منهُ مستمِدٌّ ... حرارتَهُ على مَرِّ العُصُورِ
ومن مراكشٍ يَغزو صَداهُ ... رُبوعَ الصّينِ بالصوت الجَهيرِ
وما مِشكَواة هذا النُّورِ إلا ... ضميرُ المُسلم الحُرِّ الغَيُورِ
ورفعُ الذِّكْر للمُخْتار رَفعٌ ... لقَدْرِك نحوَ غاياتِ الكَمالِ
فكنْ إنسانَ عينِ الكوْن واشهدْ ... مَقامك عاليًا فوقَ المعالي
بخنجرِ عزمك الوثَّاب لاحتْ ... على الأعلام أنوارُ الهلالِ
نداؤُك في العناصر مُستجابٌ ... إذا دوَّى بصوتٍ من بلالِ
وعقلُك في الخطوب أجلُّ دِرعٍ ... وعشقُك خيرُ سيفٍ للنضالِ
خلافةُ هذه لأرض استقرتْ ... بمجدكَ وهْوَ للدنيا سماءُ
وفي تكبيرك القُدسيّ يبدُو ... صغيرًا كلُّ ما ضمَّ الفضاءُ
فيا من هبَّ للإسلام يدعو ... وأيقظَ صدقَ غيرتِه الوفاءُ
سترفع قدرَكَ الأقدارُ حتَّى ... تشاهد أنَّ ساعِدَك القضاءُ
وقيلَ لكَ احتكمْ دنيا وأخرى ... وشأنُكَ والخلودَ كما تشاءُ

المراجـــع

فلسفة إقبال	الصاوي علي شعلان
إقبال الشاعر الثائر	نجيب الكيلاني
إقبال الفليسوف	علي حسون
محمد إقبال وفكرة الدين والفلسفي	محمد العربي بوعزيزي
محمد إقبال الشاعر المفكر	سيد عبدالماجد الغوري
إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام	عباس محمود العقاد
محمد إقبال سيرته	عبدالوهاب عزام
أسرار خودي لمحمد إقبال	ترجمة سمير عبدالحميد إبراهيم
تطور ما وراء الطبيعة في إيران لمحمد إقبال	ترجمة حسين مجيب

مواقع مختلفة على شبكة الإنترنت

فهرس المحتويات

تقديم 5

الفصل الأول: بطاقة تعارف 7

«موجز سيرته» 11

العلامة محمد إقبال ورحلته العلمية 15

أسرته ونسبه 21

طفولته 23

شبابه 25

«ومضات من حياة محمد إقبال» 27

إقبال في أوروبا 28

إقبال في وطنه 31

في المحاماة 32
في التعليم 33
محاضرات في أرجاء الهند 34
في الجامعة الإسلامية 36
سفره إلى أفغانستان 38
في السياسة 39
لقب «سير» 44
مرضه 45
وفاته 47
الاحتفال بجنازته ودفنه 48
قبره وتخليده 48
صدى نعيه في الهند 50
الفصل الثاني: أشهر أعمال محمد إقبال 53

منظومة أسرار خودي 55

كيف تلقى الناس منظومة «أسرار خودي» لمحمد إقبال؟! 62

ـ رد «إقبال» على المعترضين عليه ـ 64

رسائل محمد إقبال إلى سراج الدين بال 68

الرسالة الثانية 69

«المؤيدون» 70

«مولانا أسلم جير اجيوري» 71

خلاصة أسرار خودي 72

«محمد إقبال وجلال الدين الرومي» 73

«فصول أسرار خودي» 76

«بانوراما فصول أسرار خودي» 79

الفصل الثالث: أجمل ما كتب محمد إقبال وترجم إلى العربية من أشعار

«شكوى وجواب الشكوى» 97

محمد إقبال وحديث الروح 99

كلمات أغنية حديث الروح التي تغنت بها كوكب الشرق 101

أجمل ما كتب محمد إقبال 105

المراجع 123